عدالة السماء

رواية

جهاد نصر مقلد " نبيل "

ديوان العرب
للنشر و التوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : عدالة السماء

اسم المؤلف : جهاد نصر مقلد

الجنسية : سوريا

التصنيف الأدبي : رواية

الترقيم الدولي : 978 - 977 – 6707 - 12 – 3

رقم الإيداع : 2019 / 5586

تدقيق لغوي : هبة ماردين

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879

إهداء

روايتي (عدالة السماء) التي تطبع في دار (ديوان العرب للطباعة والنشر والتوزيع) وكلمتي الآن هي اهداء مني للأستاذ محمد وجيه مدير دار النشر المعروفة بديوان العرب ومساعديه هذا الأديب والإنسان المحترم الذي نذر نفسه ووقته مشكوراً بكل مااستطاع من قدرة، لإغناء لغتنا والحفاظ على حرفها التراثي الذي كتب به قرآننا الكريم وأقول: إن للأستاذ محمد وجيه الفضل الأكبر بدعم وتشجيع أصحاب الأقلام الواعدة والمحترفة على حدٍ سواء وفتح الأبواب أمامهم لنشر وطبع مما انتجت أقلامهم ورقياً والكترونياً من خلال هيئة مشهورة محترمة هي (ديوان العرب للطباعة والنشر والتوزيع...) هذه الدار التي فرضت نفسها بقوة على الساحة الثقافية والصناعية والتي نافست فسبقت ويعود له أيضاً الفضل الأكبر بدعوة المثقفين العرب للمشاركة بمجموعة عامة تحت نفس الإسم مجموعة(ديوان العرب للنشر والطباعة والتوزيع) اعتمدت على مقومات علمية وأدبية رفدها بقيادة حكيمة

واعية أمثال الأستاذة فادية محمد هندومة التي ساهمت أيضاً في رفع الوعي الثقافي والأدبي لدى الهواة والمحترفين بالاقتصار على نشر كل ماهو ثمين وجيد، وتوجيه صاحب الكلمة الضعيفة إلى إتجاهها الصحيح كما كان من أهم منجزاتهم الاهتمام بالنوع الصائب والمفيد من النصوص قبل النظر إلى الكم والعدد وإعطاء الفرصة لكل من يكتب باللغة العربية ليبث صدى أفكاره على جدار هذه الرابطة الأدبية الراقية ولا يسعني أمام هذه الإنجازات إلا الشكر الجزيل للدار والقائمين عليها وبالذات أقول احترامي وتقديري للأستاذ محمد وجيه والأستاذة فادية محمد هندومة والعاملين وفقهم الله وجميع القائمين على الدار والمجموعة والدعاء لهم بالنجاح والأخذ بيدهم لمتابعة نشاطهم الأدبي، والاستمرار برفد صروحهم بكل مايليق من الأدباء.. من هواة ومحترفين ومتابعين، وأعطاء لغتنا حقها من هذا التكريم وحتماً إن وجود أوفياء أمثالهم ممن أخذوا على عاتقهم وحطوا نصب أعينهم القضاء على الجهل برفد أمتنا بكل صحيح ومفيد من علم ومعرفة وبذلك يتحقق لنا الفوز الكبير دعائي لهم بالصحة والعافية والاستمرار على هذا النهج أي نشر الحرف الصادق والكلمة

الصحيحة عبر وسائلهم. الأدبية إحترامي وتقديري
وشكري ايضاً لهم لطبع و نشر روايتي... (عدالة السماء)

جهاد مقلد/ سوريا

****

رسالة شكر وتقدير

من كان يحمل الحرف سيفاً، والقلم رمحاً، و الأخلاق ترساً
ويحارب الجهل بهم وبلغة قرآنه فإن شكرالعبد لايكفيه
إنما أطلب من الله أن يحفظهم ويجعل نور العلم دربهم
والصحة والعافية زينتهم... مني ولديوان العرب للنشر ...
ولكل من الأستاذ محمد وجيه
الأستاذة فادية محمد هندومة

جهاد مقلد/سوريا

****

تقديم

مادامت الشمس تشرق من مكانها وتعود إلى مكمنها، ومادامت الطبائع في النفوس تتنقل بين الخير والشر دون كلل أو ملل، لن تتغير موروثات الحياة، وستبقى الأنانية متسلطة على بعض العقول، وسيظل حب الخير والتضحية في بعض العقول الأخرى، ولن يختفي الشر ولن يضمحل العدل ولا الرحمة من القلوب.

ولطالما كان السيء يدَّعي الخير والصلاح!

واللص يبسمل ويذكر الله قبل أن يسطو على ضحيته ويطلب حمايته، لأنه يعرف الخير ويستطيع تقبله، بل يبحث عنه ويستجير به، وقد يصل إليه!

ضربات الشر تمزق سعادة الأسر عامة...

ورتقات الخير تقرب اللحمة بين الأهل...

وجحود الأبناء غير الإرادي يعوضه تفاني الأصدقاء...

ونقول: الدنيا بمجملها مواقف مختلفة، قد تتجه في بعض مساراتها المتعددة نحو السلبية المطلقة بسبب الجهل والأمية، فيقع الأهل في مطب الترهلات غير المقبولة...

عندها تثور الخلافات الشخصية فإنها تفسد بعض الواجبات الإنسانية عامة، وقد تنحصر الأذية في بوتقة الأسرة الواحدة فتدمر الروابط الأخوية، وتنحدر معها أهم العناصر الخلقية إلى الحضيض فيخسر الإنسان الكثير من القيم المستقاة من التعاليم السماوية والبديهيات الغريزية،كالحب والتعاون والتأقلم مع الواقع التراثي بسبب مطامع مصنفة في تعاملات اللامعقول، فتتأجج في أتون الكره والحسد والحقد، وتنزلق بالإنسان من الوعي الطبيعي نحو تشرذم الأصوليات بسوء التصرف واللاإدراك، وينعدم الحافز المعيشي، وعندما تنزح نحو سوء التعامل فإنها تهدد أمن المجتمع العام بعد أن يسقط الخاص عندها بتحطم نسيج التآلف الودي، ما يؤدي إلى برودة الحماسة لعمل الخير، ويتبعه انحسار الغطاء العاطفي بين جميع المكونات البشرية، وتهتز التعاملات المنطقية بين الصغير والكبير، وبين الكبير والصغير، فيُقضى على الأعراف المتداولة، وتشح الطيبة والرأفة، وينحدر المجتمع إلى البدائية، وتسود الجريمة البشعة والسرقة، ويغتر المجتمع بالقوة المصطنعة بأن يعتز الفرد بما يحمله من سلاح ناري أو أبيض، عندها يخرج من

الساحة نور السلاح الأدبي والعلمي والمعرفي، إلى ساحة الصراعات المقيتة، فتهدر دماء الشرفاء، وتقطع أرزاق العامة، ومن ناحية أخرى لقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يترك في خلقه نعمته، وجعل التوازن الإلهي في الطبيعة بين الخير والشر.

لقد سلّم الخالق كل إنسان مستحقاته من العقل، وأوجد له الهداية في النفس، وأمر بدعم ضَحالة العواطف بالمحبة وتغذيتها بالحنان النابع من الوجدان، كما أمر بتقريب القلوب ونبذ المصالح الشخصية التي تتكون على حساب الآخرين، فقرب بعضها من بعض، عن طريق هداية العقول وتصغير المهولات.

نحن دائماً نزرع أخطاءنا في مطامعنا، وننسى أن ارادة الله هي الغالبة المؤزرة بالكتب السماوية لهداية البشر وتوسيع مساحة الاستنارة على حساب مساحات الظلام والضلال.

روايتنا هذه تحاكي مجتمعاً عربياً متوازناً في ما أنزل الله. وتروي فشل بعض الطبائع في جعل الأسرة أهم واقع في الموروثات الدينية، عندما غذاها الله بالعادات العربية الأصيلة، وطلب من خلقه نبذ كل ما يعطل نجاح

المجتمع، أكان ذلك عمداً أم كان تحت شعار (مجبر أخاك لا بطل)!

وعندما يتغلغل الشر من منافذ الخير يرسل الله له ما يقوّمه ويصوبه.

صحيح أن الشر أحياناً قد ينتصر، لكن العبرة في الكلمة الأخيرة، وما يبقى متواجداً على منابر الدنيا من حب في ميادين الرأفة والتسامح.

.....

هذه الرواية قصة من واقع المجتمع العربي تحكي قضية أسرية، تتلاقى مع بعض القضايا الأخلاقية والإنسانية المختلفة ضمن حكائيةجامعة، مع تعدد القضايا داخل أحداث الرواية، إلا أنها ترتبط مباشرة مع واقع مؤلم نعيشه نحن أوغيرنا، إضافة إلى التشعبات وروابط الفروع مع الأصل.

وفي هذه الرواية لا وجود لأحداث جانبية منفردة، ولا لشخوص ضمن الأحداث منعزلين عن الحكاية، إنما هناك ترابط إيجابي مباشر بين الجميع، وتناسق في

توقيت حضور الجميع، كلٍّ في وقته المناسب، ومن خلال الأحداث المناسبة.

حوت القصة كثافة حدثيّة، دون تكثيف يرهق ذهن القارئ، فالأحداث جميعها تُطرح بشفافية سلسة واضحة متزامنة، تتناسب وذائقة القراء.

الأماكن وهمية دون تسمية صريحة لعدم بعد أي مكان في عالمنا العربي عن مقاربة التكرار أو التشابه.

أسماء الشخوص مستعارة.

الطرح الأدبي توجيهي ضمن واقع حدثي مع الابتعاد عن التصوير الكامل، منعاً للدخول في خصوصيات الآخرين...

الرواية في مجملها محاكمة للنفس البشرية تحمل عدداً من المواقف المثيرة المختلفة...

*****

شخصيات الرواية

أبو إبراهيم: مزارع يعيش في الريف
إبراهيم: أي أبو أحمد شاب عاد الى قريته من الغربة.
وردة: أم أحمد زوجته.
أحمد: ابنهما الأكبر.
حامد: ابنهما الأصغر.
سعيد: صديق إبراهيم.
هدى: زوجة سعيد.
يوسف: سائق، جار إبراهيم.
أبو محمد: شحصية متكررة.
محمد: سائق آخر يتيم قريب أبي محمد.
وغيرهم ممن يشاركون بحضورهم الطيب.
الرواية واقعية تحمل من الحقائق أكثر من الخيال.

*****

عدالة السماء

لم يكن الحب في يوم من الأيام وسيلة أو غاية إنما هي هبة الخالق وزرعه في عقول خلقه.

الحب كلمة لا تزيد عن حرفين، ومع قلة عددهما لكنهما يسطران صدق الأفعال في أحلى نماذجها، بجعلهما أهم رابط اجتماعي خلقه الله بين العقل والفكر والعقل والجسد.

صحيح أن مجراه المتعارف عليه هو العشق والغرام، لكنه بالأصل رابط ديني صنعه الله صلة بين الفرد وبين خالقه وبين الفرد وأخيه، كما جعل منه رابطاً بين العواطف ممثلاً بعاطفة الأم والأب نحو أفراد الأسرة وبين أفراد الأسرة وأربابها.

قد يُعبث بأسلوبه ولكن لا يعبث بأصوله، وفي قصتنا هذه يتجلى الحب من خلال أحداثها بجميع صوره، سواء حب الخير والتضحية، أو حب الغدر والشر. فنعيش بين سطورها أجواء جميع ما أرسى الله في قلوب البشر من

عواطف وأحاسيس، وليعلم الإنسان أنه مهما طال بؤسه، فإن الله سيجد له مخرجاً، طول.

السعادة لايعني أبديتها، والبؤس والشقاء لا يعني أيضاً استمراريته. والإنسان عجول بطبعه

*****

عدالة السماء
الفصل الأول

العانس

لاحت خيوط الفجر الأولى، وبدأ النهار يأخذ مجراه الطبيعي كما قدر الله له.

هبات نسيم الصباح الباردة تلفح الوجوه، في يوم ستشتد حرارته في ضحاه، يومٍ من أيام حزيران المعروفة بتبدل أحواله وتناقضاته مابين الصباح والمساء. تكثر فيه أعمال المزارعين وتطلعاتهم.

بعد ساعات قليلة ستمدُّ الشمس ألسنتها الطويلة، لتلفح الوجوه، وتلهب الأنفاس.

وهاهي الآن وردة الصبية الحسناء تسير متثاقلة، يكاد أن ينفذ صبرها بسبب سوء حظها كما تحس وتفكر في سرها وتندب سوء طالعها...

وردة الصبية الريفية الهيفاء، المصطبغ وجهها بسمرة تميل إلى القتامة، لكثرة تعرضه إلى الشمس الحارقة بحكم أعمالها، ليس فقط في هذه الأيام، إنما بسبب طبيعة عملها في الريف من بذر وزرع وحصاد...

نعم إنها وردة الصبية المؤدبة، التي لا ينقصها شيء في

أنوثتها، تسير على الدروب الترابية، لاتشكو ولا أحد يحس بما تعانيه من ظلم القدر وتجاهل البشر. إلَّا أنها تعقد آمالها على حبيبٍ طالت غربته، لا يربط بينهما سوى وعد واهٍ، أكثر ما فيه تبادل بسمات مسروقة في دروب القرية كلما تقابلت أعينهما في الذهاب أو الإياب.

اليوم نحن في ربيع يبشر بخير عميم بعد شتاء تكاثرت أمطاره وكثرت مياهه، مماجعل آمال الجميع معقودة على غلاله، من قبل الأهالي ليفكوا ضائقتهم ويسددوا ديونهم ويفرحوا ببناتهم وأبنائهم.

أما وردة فتعقد على هذا الربيع أملاً أصدق مافيه أن لا أمل فيه.

تسير في تلك الدروب وليس لها سوى أن تطلق التنهدات والحسرات، فلا وعد قريب لها تنتظره ولابعيد تحلم به، لما طالها من تجاهل وإهمال من شباب قريتها بعد رحيل من كانت تود منه أن ينطق بوعد حتى ولو كان كلمة واحدة.

تلك الأيام كانت تستغرب منه ذلك التصرف، وهي الآملة منه بهمسة لتنتظره العمر كله، أو على الأقل بما يدل على رغبته بالزواج منها، لكن تمسكها بأهون الشرين تلك البسمات جعلتها آملة بعودة له، وتقول في سرها: ربما

يقع المستحيل والأمر كله قسمة ونصيب، وإن كانت ستوافق على أي قادم يسعدها.

الناظر إلى قَدِّ الفتاة وردة يراه متناسقاً، ويشعر بروعة تكوينها وتمامه وما حمل لها الكثير من الفتنة والبهاء.

ها هي وردة الآن تسير بخطوات متناسقة في دروب الحقول، تحمل بين يديها صرة كبيرة ضمنه زوادة والدها.

يظهر من خلالها كفاها الغليظان وحجمهما الكبير، فيبدوان ككفي رجل كادح، وهذه ميزة أكثر بنات الريف العاملات بسبب أعمالهن الشاقة في الزراعة والحصاد، ويبدوان بعيدين عن نعومة أنامل النساء اللاتي لايمتهن الزراعة كبنات المدن.

تلك الخاصية بهما ليست منحة ثقيلة من الله سبحانه وتعالى لها، إنما حوّلهما إلى ذلك الشكل عملها الدؤوب في الحقول.

ولكنها من جهة أخرى، تحمل في صدرها قلباً لطيفاً تملؤه البراءة والرقة، إنما يعكس على وجهها مسحات من الحزن والأسى، تغلف قسماته كآبة لا تمنع ظهور ذلك الجمال الريفي الأسمر الفتان، لكن الأماني لاتخدم أحداً بسهولة.

لقد حول انتظار العريس حياتها إلى جحيم قاتل!

أو بالأحرى جعل من وردة صبية يائسة شاردة الفكر، ظلمتها الحياة وجعلتها تقلق ليلها ونهارها. قاربت على الثلاثين من العمر ولم يتقدم حتى الآن أحد لخطبتها، لا من أقاربها ولا من جيرانها، فلا غريب يطفىء جذوة صبرها ولا قريب يمنّيها، والأهم أنها لاتدري لماذا!

هذا ما كانت تسأل نفسها كل لحظة ولكن لا جواب!

فعندما تتساءل مع نفسها أحياناً: تُرى ما الذي يعيبني؟ ما الذي ينقصني عن بنات جنسي؟

قبل أن تخرج صباح كل يوم من بيتها، تقف أمام مرآتها تنظر إلى وجهها، وتحول أنظارها إلى جسدها فتتمايل وتستدير وترمي بشعرها ذات اليمين وذات الشمال، وكأنها تتفقد ما رحل مع عنوستها من فتنة صباها، وجمال ضاع في بلد زيه المتلألئ الفأس والمنجل، ثم تزوي شفتيها حائرة وتقول مثنى وثلاث ورباع: يارب... يا رب... يا رب...

وخلال وحدتها في غرفتها تزهو لحظة بجمالها مرددة:أليس حراماً وظلماً لهذا هذا الوجه أن لا يتمتع به رجل بما أحل الله؟ أليس حراماً أن لا أكون أماً؟ يالله... فرجاً منك لهمي ورحمة من لدنك على ماتبقى من أيام صباي.

تنبهت الآن بعد أن استيقظت من هواجسها وكانت قد ابتعدت قليلاً عن القرية، وهي تتذكر مواقفها أمام نفسها، وتبحث عن علاج ما يريح نفسيتها المحطمة؛ دون جدوى. فقد التقت الآن ببعض الصبايا وهن يرفلن بذيول ثيابهن، تتمازحن بنغمات يرن صداها كصوت ربابة على ضفة وادٍ.

ها هم شبان قريتها الذاهبون إلى حقولهم للعمل في هذا الوقت يتسابقون للحاق بهن من بعيد، فيعجزهم الحياء والخوف على أعراضهم...

والمعروف أن أعمال المزارعين تكثر في نهاية فصل الربيع، من جني للخضروات وحصاد بعض الحبوب كالشعير والعدس، والجميع يعمل ما بين حرث، وبذر، وعزق وتجهيز للمحاصيل الصيفية القادمة.

اتجهت سلمى من بين الصبايا نحو وردة، وكانت تبدو أمام وردة كأنها طفلة صغيرة، فالوجه طفولي والجسد مثله.

سلمى هذه صديقة سمية أخت إبراهيم التي به تحلم وردة للزواج منه وهي بالكاد تجاوزت السادسة عشرة، وشخصيتها فاتنة:

- كيف أنت ياوردة؟

-الحمد لله ياسلمى. كأني بك تأخرت اليوم عن موعد ذهابك إلى الحقول!

ابتسمت سلمى بغنج ومماحكة لم تخفَ على وردة، وردت بدلال وتصنع مكشوفين:

- نعم لقد استوقفني خطيبي عند خروجي من القرية إلى المزارع، لكن الوقت سرقنا، بين همس وبوح وبث غرام.

تمتمت وردة وفي نفسها منها حسد:

- يا لك من منافقة! أنا أعلم أن خطيبك ما زال في المدينة، وأعرف أنه يعمل على تكسي الأجرة التي يملكها، ولو كان هنا لملأ القرية بضجيجه وعجيجه.

ثم قالت لسلمى:

- جمعكما الله وأسعدكما ببعضكما قريباً.

- ما بالك شاردة حزينة يا وردة؟ بمَ تفكرين؟

- لا، لاشيء هنأكما الله. ومتى العرس يا سلمى؟

- قريباً، وأدعو الله أن يرسل لك ابن الحلال الذي يسعدك في القريب العاجل.

- تنهدت وردة بحسرة:

_ الله كريم ياسلمى، كلها قسمة ونصيب. من أين ومتى يا سلمى؟ قريباً سأدخل في سن الثلاثين. وأنت تعلمين من

بلغت العشرين من العمر في قريتنا دون زواج أو أقله خطبت، فهي في نظر أهل القرية صنفت عانساً.

ثم تابعت صمتها وتفكيرها ومناجاة ربها:

_ يا ربي ما الذي ينقصني؟ جمالي مقبول وسمعتي ممتازة ولا غبار عليها وأهلي فوق أي شبهات! عجباً يا إلهي!

ثم ختمتها بتنهيدة طويلة وقالت تشكو أمرها لربها:

يالك من قدر ظالم! ثم ألهبتها الغيرة وهمست لنفسها: أهذه الطفلة تفوز بعريس وما جاوزت السادسة عشرة من عمرها؟!

ثم ختمت حزنها بتنهيدة أخرى مسموعة وهي تتمتم: قل لن يصيبكم إلا ماكتب الله لكم.

ردت سلمى على ضيق وردة الظاهر على تصرفاتها بكلام الواثقة مما تقول:

- توكلي على الله يا وردة، قريباً سيتحقق أملك.

- حسرة عليّ يا سلمى.

ثم نظرت إلى السماء وقالت:

- كيف يا سلمى؟ عندما تريد السماء أن تمطر تتلبد بالغيوم، أليس كذلك؟

- ثقي بالله يا وردة.

-لا إله إلا الله محمدرسول الله، وكأني بك تخفين شيئاً.
ثم سكتت والحزن يملأ قلبها، وكأن كلمات سلمى فتحت في قلبها مزاليج الأمل.
ثم راحتا تغذان خطاهما دون أن تبالي بجمال الطبيعة المشرقة حولها، ولا أن تلتفت إلى ما يدور حولها.
كل ما كانت تحتاجه وردة كلمة حب أو نظرة حنان أو أمل معقود من شاب أي كان.
فجأة رمت بأنظارها نحو البعيد، وأصبح همها في تلك اللحظة أن تعرف من هو ذلك الشاب القادم من الجهة المقابلة، نعم لم تميزه ولكنها شكت بهويته.
عزت ذلك إلى حبها المكبوت لشخص محدد لم تجرؤ يوماً أن تنظر إليه مواجهة، أما الآن وللحظة شعرت أن قلبها سيتوقف وأحست بغصة تكاد تخنقها، شهقت، نفثت أنفاسها حارة تكوي، وزاد قلبها خفقاً، فأصبح كأنه يحاول أن يخرج من فمها!
تمتمت مذهولة: من؟! إبراهيم؟! يا إلهي! متى عدت؟ أين كنت؟ رحماك ياربي... ماهذه المفاجأة غير المتوقعة؟! لقد كانت تهواه دون أن يدري، تحبه دون أن يعلم.
أما هو فلم يلتفت إليها من قبل، ولم يظهر لها شيئاً مما

تتمناه، أو مما يجول في نفسها مطلقاً.
كل ما في الأمر أن هذا الشاب ابن قريتها، تراه كما كانت ترى غيره، لكنها تتألم سراً، وتبكي حظها خفية، وتسأل الله ضارعة بأن يلتفت إليها ويشجعها بشبح ابتسامة يرسمها كل مرة يراها مصادفة في طرق القرية ودروب المزارع. لكنها لم تحجز نفسها له، فظلت تنتظر من يأتي في أي وقت لخطبتها لتقول عنه: هذا خطيبي. ريثما يصبح زوجاً لها.
لكن إبراهيم اختفى فجأة ولم تعد تسمع عنه شيئاً! ولم تجرؤ يوماً على السؤال عنه أبداً. يمنعها خوفها وحياؤها.
هاهو اليوم أمامها بشحمه ولحمه يسير على الطريق نفسه باتجاهها.
أرادت أن تفرك عينيها... منعتها الصرة التي تحملها...
لذلك رمشت بهما عدة رمشات لتتأكد إنهما لايخدعانها...
اقترب نحوها... تباطأت بالسير... نظرت إلى رفيقتها متجاهلة معرفته، وربما كانت تشك بأن الشخص الذي تراه هو أحد أبناء قريتها، وليس أملها المفقود.
التفتت سلمى إليها تسألها: أليس هذا إبراهيم؟

لكنها لم ترها حيث كانت تسير بقربها، نظرت إلى الناحية الأخرى أيضاً، ليست هناك أيضاً...

عندها شُلَّت حركتها تقريباً. لقد اقترب إبراهيم كثيراً...

لوت عنقها إلى الخلف، وإذا بصديقتها سلمى تجلس على حجر بجانب الطريق على بعد أمتار خلفها تراقب حركاتها، وتنظر إليها والبسمة تملأ وجهها.

لم يتبادر إلى ذهنها شيء الآن...

أُقفل باب العقل والصمود عند وردة...

كان همها الأوحد ذلك الشاب الذي بدأ يميل بخطواته نحوها، بل ها هو تراه الآن يكاد يحتك بها، بل يكاد يتعثر بها.

تأكدت بأنه يريدها هي، بل أصبح في مواجهتها تماماً...

خطوتان ويصطدم بها... وفجأة أخذ ينحرف عنها ويطيل النظر إليها ثم يبتسم ابتسامة عريضة جداً، ويقول عندما أوشك أن يحاذيها متلعثماً:

- إن كنت تقبلين بي زوجاً أخبري اليوم أهلك أن يرسلوا لنا من يدعونا إليهم، ويخبرنا بموافقتهم. وتابع سيره ضاحكاً دون أن يتوقف.

لم تحتمل وردة تلك الفرحة، بل انهارت وتجمدت كالحجر

الذي جلست عليه، وشعرت بأن دقات قلبها تحاول الخروج من أذنيها هذه المرة ولم يزل صوت إبراهيم يرن في أذنيها.

لم تستعد ورد بعض هدوئها حتى وصلت سلمى إليها وهي تقول ضاحكة:

- أليس هذا حبيب العمر ياوردة؟! أليس هذا من كنت تأملين به!؟

فتحت وردة فاها والسعادة تغطي وجهها تلك اللحظة، وهي تقول لنفسها قبل أن تجيب على سؤال سلمى الهادف:

- إن بعض الظن إثم، ظلمتك والله ياسلمى... سامحني يارب.

أردفت سلمى:

- تمازحها يابنة الثلاثين. جاء العريس المناسب. أنا من رتبت معه الخطة. جاء إبراهيم إلى والدي يسأله عن فتاة يريد الزواج منها، ووعده والدي بأن يسأل له أقاربنا، وقبل نهاية زيارته استأذنت بالخروج إلى البقالة، وانتظرت خارج البوابة حتى خروجه، وقلت له بسرعة كلمات فهمها... وردة ما زالت تنتظر. تعال مع الفجر

كأنك عائد إلى القرية...

ثم أدارت لها ظاهر كفها، وهي تقول ممازحة:

- قبليها...

ثم أمسكت بيد وردة تساعدها على النهوض ووردة في وادٍ آخر، تحاول النهوض بتثاقل شديد، ثم استدارت وأخذت تنظر إليه وهو يبتعد... إلا أن سلمى جرتها من ثوبها ممازحة:

- إلى أين يا وردة؟ لم يحن وقت العودة بعد إلى القرية.

- يالك من محتالة ياسلمى

- هذا جزاء المعروف أليس كذلك؟!

- كلا بل أنا أقر لك محبتك

أخذت وردة تسير مع صديقتها وكأنها مسلوبة الإرادة ومجبرة على ما لا تطيق، وهي تتمنى العودة في الاتجاه نفسه الذي عاد منه إبراهيم لعلها تراه.

والأهم من هذا وكله، أن تخبر والدتها بما حصل.

لم تنتبه إلى أنهما وصلتا إلى مفترق الطريق الذي ستسير سلمى فيه، حتى لاحظت إشارة يدها المودعة ولكزتها بها.

عندها صاحت:

- قفي لحظة يا سلمى. أخبريني ماذا حدث.

لوحت سلمى بيدها من جديد وهي تحاول الخروج من هذا الموقف بدلال شديد قائلة:

- الصبر طيب..الصبر طيب... سنلتقي آخر النهار إن لم يكن هنا؛ نلتقي هناك في القرية.

ثم عجلت بخطاها، وصوت ضحكاتها يتبارى مع تغريد البلابل فيتفوق عليها أنغاماً وألحاناً.

وقفت وردة مشدوهة؛ دون حراك، وقد أفلت جزء من الصرة التي تحملها من يدها، ملوحة لسلمى بيدها الآخرى ببطء شديد، وكأنها نسيت أن التلويح له نهاية، ونسيت أن وجهها ملتفت نحو الطريق الذي رحل منه الحبيب، وأن رفيقتها أدارت ظهرها وابتعدت!

لم تفق وردة من ذهولها تماماً حتى شعرت بأن الصرة انزلقت من يدها الحاملة لها، ولم تستطع منع سقوطها، فجلست قربها تفكر بما حدث، ناسية أنها تحمل زوادة أبيها الذي بكر إلى عمله في الحقل قبيل طلوع الفجر كما يفعل كل يوم.

مرت دقائق طويلة قبل أن تخرج من حالة السعادة الحائرة التي سيطرت على تفكيرها.

نظرت إلى المزارع التي حولها، وكأنها تراها للمرة الأولى،

فأحست بجمال الطبيعة الحقيقي ورونقه بعد أن كانت تراه واجباً ملزماً... رأت السعادة في حفيف أشجار الطريق، وفي تثاقل الأغصان بالثمار... أحست أنها تتمايل، وتتشابك لتشاركها فرحتها... تنظر إليها وكأن تلك الأغصان في عناق خجول متردد... تضحك لها بجنون... هنا لا أحد يراقبها الآن.

تركت الصرة على الأرض، وأخذت تقفز عالياً وهي تلوح بيديها إلى الأعلى، ولم تنتبه للفتيات اللواتي خرجن من منعطف ليس بالبعيد ذاهبات إلى أعمالهن، فركضن نحوها، وقد شاهدن من بعيد بعض تلك الحركات فظنن أنها تعاني من مصيبة حلت كلسعة أفعى أو لدغة عقرب، وحين أحست بهن جلست على الأرض من فورها...

صاحت أسرعهن:

- بسم الله الرحمن الرحيم، ما بك يا وردة؟ ماذا حدث لك؟

ردت وردة، وقد حاولت أن تخرج نفسها من حالة السعادة المسيطرة على عواطفها، والبادية على قسماتها:

- لا، لا شيء يدعو إلى القلق. ولكن قدمي التوت تحتي فجلست أريحها، والآن تحسنت. أعطني يدك يا أختي.

- الحمد لله على سلامتك ياوردة قلقنا عليكِ

خطت وردة خطوة بحذر شديد وهي تتظاهر بالعرج الخفيف، ثم سوت مشيتها وقالت:

- الحمدلله، مرت بسلام...

انحنت تحمل صرتها، فقد كان لا بد لها من مرافقتهن على الطريق، ولم تعد ترى أمامها شيئاً إلا ولفت نظرها، ثم تشبهه بسعادتها المستجدة الآن.

*****

عدالة السماء
الفصل الثاني

أمل تحقق

منذ أيام وصل إبراهيم إلى قريته بعد غيبة طويلة جداً في بلاد الغربة هناك، كان يعمل خلال تلك السنوات جاهداً، فوسع من رزقه ورزق أهله، وغيّر حالهم نحو الأفضل... واليوم عاد من الغربة يحمل في نفسه أحلام الشباب المعروفة، لكل ساع إلى تكوين حياته بسعي مشرف وجهد مشكور... جاء يبحث عن عروس تسعده ويسعدها، وكان فكره منصباً على فتاة أحلامه السابقة وردة. ولكنه لم يتوقع بأنها مازالت على حالها وكان يخشى من توريطها والعبث بعواطفها لم يصرح لها بشيء أبداً قبل سفره، خشية أن تطول غيبته في الغربة، وهذا ما حدث... وفي الوقت نفسه كان وجدانه وقلبه متعلقين بها، إنما لم يخطر بباله إطلاقاً أنها ما زالت تنتظر كما نوهنا من قبل، وإن كان انتظارها على الرغم من إرادتها لم يكن يعلم بأن عائق زواجها هو من القدر وليس أنها نذرت نفسها له.

وفي لحظة، وبتجاهل متعمد سأل أخته سمية:

- وردة من نصيب من كانت؟
- ما زلت تفكر فيها؟ لماذا لم تعدها بالزواج قبل سفرك؟
- لم يطاوعني قلبي أن أغامر بمستقبلها.
- كان الأولى بك على الأقل ترسل لنا ونحن نحجزها لك

رد بحسرة واضحة:

- كلها قسمة ونصيب، كم عدد أولادها

تظاهرت بالحزن الشديد وأنها تتألم له ولحظه السيء فقالت ممازحة:

- أصبح عندها ثلاثة أولاد وبنتان.

تلون وجهه قليلاً بمسحة من الحزن:

- وردة تستحق كل خير، عساها مرتاحة مع زوجها...

ثم تبسمت ودفعته بيدها وهي تضحك بأعلى صوتها:

- منذ صغرك ونحن نناديك بالمحظوظ:

كما رأيت إنها ما زالت تنتظرك.

- ماذا؟! تنتظرني؟! لماذا؟
- كلا بل حظك المعروف منع من أن يتقدم لها أحد!
- لكن لماذا تسأل عنها؟ أما زلت تحبها كما كنت تسرّ إلي وأنا طفلة صغيرة؟
- وما ينفع الحب الآن بعد هذه الحال؟

- قلت لك أنها لم تتزوج بعد ولم تخطب لأحد

رد إبراهيم مستغرباً ومتصنعاً عدم الفهم:

- ماذا؟ وهل صحيح ما تقولين أم إنك تمزحين كعادتك

- لا حال ولا منال... ما زالت تأمل بعريس يأتي، وأنت أفضلهم.

قفز مشدوهاً، وانصرف تاركاً أخته في دهشتها...

بعد لقائه بوردة جلس على الدكة أمام مسكنه في دار والده التي ابتعد عنها أكثر من عشر سنوات، منذ أن كان شاباً يافعاً كغيره من الشباب الطامح المتحمس لتحسين واقعه... إبراهيم هذا الشاب المحبوب الذي يحمل في طيات قلبه اللطف والأدب وحب أهل قريته وأصدقائه، هذا الشاب الذي يحمل في تفكيره شعاراً لم يتخلَّ عنه، وظل يردده ردعاً لرغباته وتطلعاته في كل مايدور: (لاتتجاوز حدود المعقول).

وفي طموحاته، وفي مسيرته وتعاملاته: (امش عدل يحتار عدوك فيك).

نعم... لم يحاول في يوم من الأيام أن يتخلى عن هذين الشعارين، سواء في المدرسة أو في البيت أو في الشارع، حتى أصبح مثلاً يتخذ لشباب قريته أدباً وخلقاً، ما جعل

الآباء والأمهات يتخذونه معياراً لأولادهم للتمثل بهذا الشاب الأديب.

عاد إبراهيم بعد رؤيته وردة في ذاك اليوم، إلا أنه لم يدخل البيت مباشرة، بل جلس على مصطبة أمام بيتهم، ينتظر خروج والده حيث يجلس ووالدته عليها كل صباح ومساء... لم يطل جلوسه حتى خرج والده يحمل بيده دلّة القهوة العربية وأدواتها...

بادره والده بالسؤال:

- أما زلت هنا يا ولدي؟

- نعم يا أبتي.

- ماذا ستفعل الآن؟

- أفكر بالزواج أولاً، ولا أفكر بالعودة إلى السفر، فحظي فيه لم يكن كما تمنيت...

- نعم ياولدي... خيراً تفعل... الزواج يا بني هو استكمال للدين واستقرار بعد غربتك الطويلة؟

- وساتزوج من أجلكما أنت وأمي، كي تقف زوجتي معكما وتساعدكما.

- هل لي أن أعرف من هي سعيدة الحظ؟

- تعرفونها جيداً، هي وردة ابنة قريتنا...

- لا أعرفها، ولكن المهم أن يكون اختيارك موفقاً، هل تعرفها من قبل؟

- نعم ولا أعرف سوى إنها لم تتزوج حتى الآن. كنت أميل إليها في المدرسة، وكنت أرى في سلوكها كل مايتمناه الشباب.

- يهمنا اختيارك، ولكن صفها لي...

- مؤدبة خلوقة طويلة سمراء جمالها مميز...

- ابنة من؟ كم عمرها؟

- كل ما أريده عرفته من خالتي، لقد قاربت الثلاثين من عمرها.

وهنا انتفض والده وهو يقول ساخراً:

- الله الله! تتزوج عجوزا ياولدي؟! لماذا لا تبحث عن أخرى تجاوزت الأربعين؟!

ثم هدأ قليلاً... لايريد ان يغضب ابنه:

- كبيرة يا ولدي...

في تلك اللحظة خرجت أم إبراهيم من البيت، تحمل بين يديها صينية محملة بالكثير من أصناف الطعام...

كان قد نادها أبو إبراهيم قبل قليل، ليخبرها بأنهم سيتناولون طعامهم على المسطبة هنا.

كانت المسكينة عاجزة عن البقاء متوازنة تماماً، بسبب أمراض الشيخوخة التي غزتها، ولحسن الحظ أنها عندما التقطت بعض أطراف الحديث كانت تضع الصينية على الأرض، فلم تتأثر محتويات الصينية بالسقوط المفاجئ حين سمعت باسم العروس المنشودة، ومع ولولتها صاحت:

- ماذا؟ تريد أن تتزوج العانس!! لا يا ولدي هذه ليست لك ولا حتى لنا... أنت لا تعلم شيئاً... هكذا يسميها أهل القرية (العانس).

أراد ملاطفة أمه وتهدئة أعصابها، فقام وقبل جبينها، وهمس بأذنها بصوت دافئ:

- كما تشائين ياأماه... ولكن لي شرط...

- اطلب ماتشاء... إن أجمل بنات القرية ستكون عروساً لك...

- ليس هذا ولكن... صارحيني يا أماه بما تعرفينه عن مسلكها وسلوك أهلها.

- يا ولدي هؤلاء من أكارم الناس، لكن العانس هي العانس...

فقال ممازحاً:

- وأنا يا أمي، ماذا يقال عني؟ ألا يقولون المعنس؟ فعمري الآن فوق الثلاثين عاماً.

- لا يعيب الرجل سنه يا ولدي. فمازلت أنت في عز الشباب.

كان حواراً متبايناً بين الجميع، ولكن في مجمله كانت رغبة إبراهيم هي المحققة...

فأراد أن يحسم الموقف فقال:

- أماه الأمر قد حُسم قبل ساعة.

- لم أفهم يا ولدي؟

- الوقت أصبح ملكهم، ولا أعلم متى سيردون علينا بالموافقة... هذا إذا...

ابتلعت الأم لعابها وسكتت على مضض، ثم استدارت ودخلت المنزل لتجلب خبز الفطور، والدموع تنهمر من عينيها، وهي تهمس بينها وبين خالقها:

- لك الله يا ولدي، متى؟ وكيف حدث هذا؟ ولكن لا أريد أن أدخل بالتفاصيل أنت حرٌ.

ثم أضافت:

- لأريدك أن تندم يا إبراهيم

- لا جعلنا الله من النادمين يا أماه

سأله والده وقد فوجئ بالخبر:

- ماذا تقول؟ وكيف؟

- لقد اتفقت مع سمية أختي التي رتبت ليلة الأمس مع سلمى طريقة لمقابلتي لها، فخرجت مع الفجر قبل أن يخرج أحد من القرية، ثم ابتعدت عن القرية في الدرب الذي تذهب منه وردة ورجعتُ ساعة خروج الصبايا إلى الحقول من الطريق نفسها إياباً.

صادفتها وطلبت منها أن تخبر أهلها بأن يرسلوا لنا من يخبرنا بموافقتهم... وقد قامت سمية أختي بالاتفاق مع صديقة لها تدعى سلمى لترتيب ذلك اللقاء.

رد الأب باسماً:

- في النهاية هذه رغبتك، وليس علي سوى الدعاء بالتوفيق والسعادة لك ياولدي.

****

عدالة السماء

الفصل الثالث المشهد الأول

الخروج من الجنة

بعد مدة قصيرة إنتهت ترتيبات الخطبة المعرفة، ثم جرت مراسم الزواج بأبهى حللها، ودخلت وردة في عصمة إبراهيم...

وبدأ روتين الحياة التقليدي المعروف في القرية يأخذ مجراه... فكانت وردة محبوبة لطيب أخلاقها وحسن تعاملها في أعمال المزارع ومسؤوليات البيت، ثم الدور الطبيعي للمرأة التي أنجبت مولودها الأول وأسماه جده أحمد.

وبعدها بسنتين رزق إبراهيم ووردة بمولود آخر أسمياه حامداً.

لم يعد بإمكان إبراهيم تحمل مطالب الحياة التي أثقلته... منذ البداية حاول شراء بعض الأراضي الزراعية، لكن ما ادخره من غربته ذهب أكثره في نفقات عرسه المبالغ فيها في شرقنا العربي عامة...

أخيراً ضاق به السكن فهو لم يشغل من البيت سوى غرفة واحدة، أعطاه إياها والده، ليسكنها بعد زواجه،

وأصبح بحاجة اليوم لغرفة أخرى.

حار في أمره وحاول أن يستأجر في القرية، لكن والدته رفضت رفضاً قاطعاً خروجه من المنزل.

أما الأب فكان رده متحفظاً أكثر حين قال رداً على اقتراح إبراهيم:

- بارك الله بالبيت الذي يخرج منه بيت آخر.

ولكن التردد وضيق ذات اليد أبقت الفكرة في سجل الزمن ورغبة القدر.

مرت عدة سنوات حملت لهما السعادة والراحة عاشاها معاً في أحضان والديه، بين حنان الأم وعاطفة الأب وسعادة الجد والجدة بحفيديهما، خاصة وأن إبراهيم وحيدهما من الذكور.

لكن القدر يرفض دائماً إلَّا أن يفرغ الكأس كله.

إذا عبس في وجه إنسان رماه!

وإن أنصفه رحمه، وأسعده ولكن إلى حين.

وهذا مافعله القدر بأسرة أبي إبراهيم في صباح يوم بدأه القدر بأكبر المآسي.

جاءت سمية تجري مسرعة نحو إبراهيم وهو يعمل في الحقل، تصيح، وتلطم من بعيد:

- أمي.. أمي يا إبراهيم...

رمى فأسه وركض نحوها ليرد عليها ملهوفاً:

- ما بك يا سمية؟

لكن سمية لم ترد عليه! بل استدارت عائدة على أعقابها قبل أن يلحق بها وتجري بأقصى سرعة وهي تولول، وتلطم، وتندب!

تبعها مسرعاً وكلمة أمي التي رددتها أخته سمية تشغل عقله... ركض خلفها علَّه يفهم ما حدث، لكنها ولّت كما جاءت، واختفت عن أنظاره.

لم يرد القدر أن يمهل أم إبراهيم أكثر من ذلك، كما أن القدر أبى أن يمهلها حتى يصل ولدها من الحقل...

قُبضت، وكان البقاء لله...

أخذ إبراهيم يسابق الريح في طريق عودته إلى البيت، وسأل أطفالاً ذاهبين إلى الحقول لم يعرفهم عمَّا حصل في القرية، فأجابوه:

- أم إبراهيم ماتت اليوم...

صعقه الخبر من جديد، وإن كان يشك بأن هذا ما سمعه من أخته...

أخذ يجري ويندب أمه بصوت عالٍ، والريح تدفعه إلى الخلف وتنثر في وجهه رمال الطريق وغباره، فيقاوم متجلداً ويقول للريح في نفسه:

- لن تكوني أقوى من مصيبتي...

وينظر حوله بين الحقول فيجد الطبيعة كما هي، لاشيء يتوقف لمصيبته، ولا شيء يرثي لحاله!

وصل صحن الدار، وشق طريقه بين جمهور المعزين والمشاركين، فأخذ يندب أمه بكلمات تقطع القلوب:

- يا مَن أصابك سهم الفراق الدامي... ليس سوى سهمك أدمى قلبي...

يا من تعطر برائحة أمه اليوم... سعد بالجنة دوني...

يا إلهي... دقائق قليلة بيني وبين نظرة تروي غليل فؤادي منك يا أماه !

يا من لا تعرف رائحة الموت الزؤام تعال إلى هنا... أقبل... تنشقها من أنفاس أمي المعلقة في أطراف بيتي...

ويا من كان الشقاء عيدك والحزن سيدك يا إبراهيم...

قلّ لا إله إلا الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون..
رحمك الله يا أمي... ليتني كنت اليوم كسير العظم قعيد الفراش، لكنت ودعتك مبصرة وما رأيت العينين مغمضة!!

نفرت إليه أخته سمية حال شاهدته، فطوقت عنقه تنوح وتبكي وتندب حظها وحظه، فسألها:
- متى؟ وكيف؟! لقد تركتها أمس سليمة معافاة... إلا إنني لم أرها صباح اليوم، فقد ذهبت باكراً إلى الحقل.
فقالت وهي تشهق وتتنهنه باكية:
- كانت جالسة كعادتها تسند ظهرها إلى جدار الغرفة. لم آبه، ولكنني استغربت كيف أن غطاء رأسها يتدلى دون أن ترده إليه! كلمتها... لم ترد... تقدمت نحوها... وما أن أمسكت بيدها حتى سقطت كتلة واحدة على الارض!
وأخذت سمية بالصراخ والعويل:
- وكان لابد لي ان أخبرك، فهرعت إلى الحقل أخبرك بمصيبتنا.
لكن رفعت صوتها كثيراً عندما هاجمتهما نوبة بكاء عنيفة.

وفي تلك اللحظة وصل والدهما الذي كان في أطراف القرية، وهناك من لحق به أيضا وأخبره فسمع نواحهما، وبكاءهما، فنهرّهما، والدمع يترقرق من عينيه، ولكنه كان يجاهد لإخفاء عواطفه أمامهما:

- إبراهيم... أراك تنوح كالنساء، وكنت أرى فيك سبع الرجال! تعال وقف معنا مع الرجال نتقبل التعازي معاً، فلا مرد لمشيئة الله... وأنت ياسمية، اذهبي إلى جوار أمك، نوحي فوق رأسها قدر ماتشائين.

خيم الحزن على البيت فترة طويلة، حتى أصبحت البسمة نادرة والضحكة معدومة.

وقد خلق الله لعباده خاصية زرعها في فكرهم وغريزتهم، وهي النسيان، فكل شيء يزيد في حياة الإنسان يتراكم، إلا المصيبة تتراجع وتصغر بمرور الزمن.

انتهت فترة الحداد، وبقيت الذكريات توقظ القلوب في كل لمحة بصر من عيونهم جميعاً على أشياء البيت...

ولكن أن يبقى الرجل دون زواج وتقوم بمهماته زوجة ابنه، فهذا مستحيل...

قرر أبو إبراهيم الزواج، وأيد الفكرة كل من إبراهيم

وزوجته وردة.

عثر على صبية لا ينقصها شيء من جمال وأنوثة، تزوجها وسر بها.

لكن وردة بدأت رحلة عذاب جديدة في حياتها مع زوجة أبيها، وكانت الحجة عبث ولديها وشقاوتهما والضوضاء التي لا تهدأ أثناء لعبهما...

لم تكن تطلع زوجها على شيء مما تعانيه من تصرفات حماتها الجديدة زوجة أبي إبراهيم، ولكن للصبر حدوداً...

عاد إبراهيم من عمله في أحد الأيام، وما أن دخل غرفته حتى رأى زوجته غاضبة تغلي، وتتمتم بكلمات غير مفهومة! مع العلم أنها لم تكن المرة الأولى التي يشاهد فيها زوجته منزعجة. وكانت حين يسألها ترد مع ابتسامة لطيفة:

- لاشيء... لاشيء...

لكن... هذه المرة تغير شكل وجهها، ولم تعد ككل مرة حين تراه، تفرد أساريرها وتتناسى منغصاتها. بل كان وجهها يعبر عن أقصى درجات الغضب. قال على الفور:

- لماذا كل هذا التجهم يا حبيبتي؟!

- لا شيء... الغداء جاهز.

-هيا بنا... لكن أخبريني...

قالت له:

- لا شيء... كما قلت لك...

- صدقيني ياوردة إنني أحبك لشخصك، ولكنني أعبدك لكبر عقلك، وأرجوك وأتمنى معرفة سبب تجهم وجهك الدائم في هذه الأيام، خاصة اليوم.

- أبداً... لا تشغل بالك يا حبيبي... إنها أمور البيت ومشاكل الولدين الصغيرين كما تعهدهما من شقاوة وإزعاج.

- وأين كنتِ قبل هذه الأيام؟ لماذا لم يظهر عليك الحزن آنذاك؟

- ما الذي يفتح نفسك اليوم على هذا الحوار وأنت تراني كل يوم بالشكل نفسه والحالة ذاتها؟!

- لا تسأليني... أليس من حقي وواجبي أن أحمل معك همك وأقدم لك مايسعدك؟ إنه واجبي يا وردة...

- تناول طعامك يا حبيبي ولا تهتم.

أقفل الحوار عند هذه النقطة، وذهب أبو أحمد بعد الغداء للنوم والراحة، بينما جلست أم أحمد قبالة النافذة تشكو مافي قلبها لربها...

لقد كان لدى وردة الكثير مما لم تصرح به لزوجها، فهي تحمل طيباً من أصلها ودماثة بأخلاقها وحباً منها، ولا تود أن ترمي همومها على زوجها فوق ما يعانيه من أحمال وهموم بسبب أعماله الشاقة في مزرعة والده الذي رفض تخصيصه بحصة محددة، ليعمل لصالحه، إضافة للعمل العادي مع والده، والحجة إنه يخاف أن يتخلى عنه في كبره فيما بعد إذا عجز.

كما كان لدى وردة الكثير مما تحمله من عناء في تعاملها مع حماتها الأولى، حين أوشكت أم إبراهيم أن تفقد عقلها لكبر سنها، وخاصة بعد أن أصابها مرض الزهايمر وبات جلياً في تصرفاتها قبل وفاتها بفترة وجيزة...

ولكن للصبر حدوداً...

كانت وردة تنطوي على فكرة تراودها، ولم تكن تستطع التصريح بها لزوجها، وهي الرحيل من هذه القرية والسكن في المدينة، خاصة بعد لقائها ببعض صديقاتها اللواتي تزوجن من قبل من شباب من القرية يعملون في

المدينة، فرحن يمتدحن لها جمال المدينة وسهولة الحياة فيها.

جاءها بعض الفرج عندما سقطت أم إبراهيم فجأة بنوبة قلبية لم تمهلها حتى عودة ابنها وزوجها من عملهما، ولكن عندما انتهت مراسم العزاء المبالغ فيها في الريف العربي بشكل عام وانتهت مدة الحداد، وبعدها تزوج أبو إبراهيم من زوجته الجديدة، تغير الحال.

وبدأ الطوق يضيق عليها بشكل خاص، بدلاً من أن يحلّ الفرج، فقد زاد التضييق عليها من حماتها الجديدة بعد مضي عدة أشهر أي من زينب، وهي فتاة تكاد أن تكون في عمر ابنته، وبدأت ألاعيب زوجة الأب المعروفة، بالتمثيل والتدجيل، وجاء حمل زينب الأول ليدق أول مسمار في ثوابت العائلة...

الخالة (زوجة الأب) أصبحت تطمع بغرفة وردة لطفلها القادم، وترمي بعض الكلام على مسامع كنّتها وردة أم أحمد، كأن تقول لزائراتها على مسامع وردة:

- من أراد السكن عليه أن يبني غرفة من جيبه...

فتسكت أم أحمد(وردة) ولا تجيب وهي تعلم بأن زوجها قدم الكثير وصرف الكثير، في هذا البيت، أثناء غربته، وأيضاً عمله في حقول والده والمساحات الأخرى التي اشتراها، من عمله في الغربة لكن أخلاق وردة السامية وطيب أصلها يمنعانها من الرد والمعايرة.

كما كانت خالتها تحاول استفزازها بالشكوى الدائمة من ولديها (أحمد وحامد).

طفح الكيل... عندها لم تجد وردة بداً من التفكير بالرحيل من هذا البيت، على الرغم من أن هذا الأمر جاء متأخراً الآن، فعمر زوجها أحمد قارب الكهولة، وهي دونه ببضع سنوات، وقد قلّ جهدهما! ولكن ما زالت للشباب بقية عندهما.

إنما كان أسوأ ما في الأمر دخله المادي البسيط، الذي لا يتعدى ما تسمح به نفس والده، لذلك قررت التصريح له بفكرتها...

ما أن دخل زوجها عائداً من عمله حتى فاجأته بصوت منفعلٍ، وهي أول مرة تخاطبه بعنف منذ زواجهما:

- ماذا تنتظر؟ ولدانا يا أبا أحمد... صغيران اليوم، كبيران بعد بضع سنوات... وسوف يطلبان الزواج، وهذا المكان

أنت تراه بنفسك، فيه من الضيق ما يحطم أحلامنا... منزل والدك صغير، وتضييقهم علينا وعلى الأولاد قائم دون أن أخبرك...

سألها زوجها:

- وما الذي يزعجك يا وردة؟!

- اليوم دخلَت إلى منزل والدك خالة، لكنها حرباء وأمثال هذه كثيرات، وأنت تعلم بأن خالة سيدنا يوسف عليه السلام لم تنصف ابن زوجها، فكيف بنا نحن؟! اسمع يا إبراهيم الوضع لم يعد يحتمل...

- هل من جديد يا وردة؟

- نعم زوجة أبيك حامل وستعمل المستحيل حتى تطردنا، ولم يعد لنا بقاء هنا، فهي حتماً لن تتركنا... دعنا نرحل بإرادتنا أفضل لنا من أن نخرج مطرودين، حينذاك لن نبالي حتى بحاجياتنا الخاصة و قد لا نستطيع أخذها معنا بل ربما نحاول فقط أن ننجو بأنفسنا

- لكن زوجة أبي عاقلة... ولا أعتقد إنها ستؤذينا...

- حقاً لن تؤذينا جسدياً، ولكنها ستطردنا... وقد سمعتها أكثر من مرة تتهامس هي وجارتنا،

ولا ترفع صوتها إلا عند الجملة التي تريدني أن أسمعها.

- اعقلي يا أم أحمد... لا أعتقد بأنها تقصدك أنت.

- حبيبي... أنت لا تعرف كيد النساء، وهل تظن بأن المرحومة أمك كانت أكثر عاطفة نحوي من زوجة أبيك؟ ولكنني صابرة مصابرة، لم أشأ أن أعكر صفو حياتك بمشاكل البيت والأسرة...

خلافاتنا المنزلية كانت دائمة، وأنت تعلم أن المرحومة والدتك وصلت قبل وفاتها إلى مرحلة سيئة في تصرفاتها، لكنني لم أشركك في هذا الوضع. كنت آمل بوفاتها أن تنتهي همومي. لكن... اليوم أصبح الوضع مع زوجة أبيك لا يطاق...

دعنا يا زوجي الحبيب نهرب صوب المدينة وحياتها وعملها.

هناك ياحبيبي لا نهيق حمير، ولا صياح ديكة، ولا روائح أغنام، ولا خوار أبقار يفرض علينا حلبها. هناك ستجد بدل زرائب الحيوانات، كراجات للسيارات، وبدل الدواب والبقر آليات...

- وما أدراك أنت بكل هذا؟

- الكثير من صديقاتي تزوجن وتبعن أزواجهن إلى المدينة، وها هن يقضين إجازاتهن في القرية.
هناك يا حبيبي تشرق الشمس على عطر الحدائق، وتغرب على أصوات الباعة الجوالين، يبيعونك ما تبقى من بضائعهم بأرخص الأثمان...
فكر ياحبيبي بما قلت لك، النار فيما لو أطفئت دون ماء ستترك جمراً، لتعود أسوأ مما كانت، والإنسان يعيش الحياة مرة واحدة، والأولاد أمانة في أعناقنا... هيا أنت لا تشعر بما أحس ولا بما أعاني...
هيا يا إبراهيم... الوقت ضيق جداً...
صمت القبور كان بين شفتي إبراهيم، وضجيج الطاحون في رأسه...
زوجته محقة جداً، وكلامها يُظهر معاناتها، ويرشح مستقبلهم، فالأولاد بحاجة إلى تعليم ومدارس، وشبابه أصبح متهالكاً.
لقد جرب غربة بضعة سنوات، ولكنه أبى أن يترك والده وحيداً، فعاد من أجله وهاهي والدته قد رحلت إلى خالقها، ووالده يستطيع تدبر أرضه... إذ يمكنه أن يعطيها

لأحد المزارعين على النسبة...
نعم سيوافقها الرأي لا بد من الرحيل...
وضعت وردة الطعام، فتناول طعامه على عجل ولف كوفيته على رأسه وخرج مسرعاً...
لحقت به زوجته قبل أن يبتلعه الطريق وهي تقول:

- إلى أين يا أبا أحمد؟!

- سأحاول أن أحقق طلبك في الرحيل إلى المدينة...

- تبحث عن سكن لنا؟

- كلا... بل عن عمل...

- لماذا لا تبحث عن سكن أولاً ونرحل مرة واحدة...

- وماذا لو لم نجد عملاً؟

ردت باسمة:

- نأكل شحومنا... ستجد بإذن الله هكذا يقول إحساسي.

- سأذهب إلى المدينة القريبة المركز عاصمة المحافظة الصغيرة، ولو أنها جبلية وشتاؤها قاسٍ جداً بسبب كونها ترتفع كثيراً عن سطح البحر، للبحث عن عمل فيها...

الحياة فيها أسهل من المدن الكبيرة...

- وماذا أقول لوالدك إن سأل عنك؟

- قولي له صراحة بأنني ذهبت للبحث عن عمل وسكن، وسنرحل بعدها.

- نعم سأقول له ذلك.

- وعملي هنا لم يعد يكفي الأسرة...

- أظن أن والدك سيجدها فرصة لأخذ غرفتنا...

- هذا ممكن، وحتماً عندما تلد زوجته سيحتاج إليها...

- أدعو لك بالتوفيق، وأن يسهل الله طريقك ويعطيك ماتصبو إليه.

- أسمع صوت المكروباص الآن... ربما وصل...

- نعم أنا أيضاً أسمعه، حتماً سيمر من هنا...

- اذهبي إلى البيت، ربما الأولاد بحاجة لشيء ما، وأنا سأنتظره في ساحة القرية.

- نعم... مع السلامة...

- سلمك الله...

ودعها وذهب ينتظر الميكروباص في ساحة القرية، وصل أبو أحمد إلى الساحة ووقف ينتظر،
كان أبو أحمد غارقاً في أفكاره، يجلس القرفصاء ويسند ظهره إلى جدار خلفه، ولم ينتبه
إلى أن رجلاً كان ينظر إليه متمعناً به، إلا حين بادره بالحديث:
- إلى أين أنت ذاهب؟
ارتعش أبو أحمد لسماع صوته. لم يكن هذا الصوت غريباً عنه:
- من سعيد؟!! ما الذي جاء بك إلى قريتنا؟!
- ظروف خاصة، سأشرحها لك فيما بعد.
- كيف حالك؟
- الحمد لله...
- لماذا لم تعد إلى الخليج؟!
ـ لم أستطع ترك والديَّ بمفردهما، كما أنني كنت أبحث عن عروس تزوجتها فيما بعد،
- وهل رزقت منها؟

- الحمد لله رزقني الله ولدين

- وأنا تزوجت مثلك ولكن لم يبق عندي أولاد،

- لماذا؟ هل هناك مشكلة ما؟

بعد أن تنهد طويلاً قال:

- ستعرف كل شيء فيا بعد

كأني بالمكروباص قد تأخر.

- لعلمك، المكروباص تعطل قبل قليل في الشارع... لقد رأيته بنفسي وكان السائق يطلب من الركاب النزول ويقول لهم: من يود المغادرة سأعيد له نقوده وليذهب حيث يشاء.

وأنا عندي تكسي خاصة أعمل عليها، ريثما أرتب أموري مع المحاكم...

- اللّهُمَّ اجعله خيراً...

- سنلتقي كثيراً ونتحدث...

*****

عدالة السماء

الفصل الثالث المشهد الثاني

سعادة لا توصف

- اركب معي يا سيد إبراهيم.

هذا ماقاله سعيد.

- بل نادني يا أبا أحمد... ولكن لمَ تصر على نقلي معك؟! كي نتحادث ونستعيد ذكرياتنا، هذا إن كنت ذاهباً إلى المركز، ولآخذك معي في طريقي.

- نعم وهو قصدي المركز.

- كنت أنتظر المكروباص، أما وأنك قلت رأيته معطلاً فسأركب معك إذاً.

- إذا أردت أن أنقلك معي، ممازحاً، سأتقاضى منك أجرة راكبين، أنت ضخمٌ جداً وستأخذ محل راكبين!

ضحك أبو أحمد وقال:

- الآن علمت لماذا هذا الكرم وهذا الإصرار على نقلي بسيارتك، مؤكد طمعاً بالأجرة المضاعفة.

ثم أردف ساخراً:

- أبحث عن رزقي، وهذا من حقي أليس كذلك؟

- كل الناس بحاجة إلى المال حتى الأثرياء جداً أمثالك، يبحثون عن زيادة لثرواتهم.

- من كان في وضعي عليه أن يعمل المستحيل كي يقطع وقته، ولست طامعاً بالمال، وأنت تعلم وضعي المالي.

- ولكن ما الذي يدفعك لهذا وأنت ثري جدا؟ً وقد رأيت بنفسي أعمالك ومشاريعك هناك.

- من هذه الناحية الحمد لله لدي الكثير.

- ولكن لماذا تشكو من الفراغ أين زوجتك وابنك؟

- أود ألَّا تسأل الآن، ومع هذا أرى من الأفضل أن أفرغ مكنون صدري لصديق عزيز مثلك.

- تفضل... أنت تعرفني... إن كان ذلك سراً فهو عندي في أعماق بئر لاقرار لها.

- لا ليست سراً على الجميع ولكن في القرى هنا سريتها أفضل، إنها قضية كبيرة يا أخي، ومصيبة حلّت بي... حصل هذا في أحد الأيام قبل أن أسافر إلى المغترب عندما كنت أعمل على سيارة أجرة... وبسبب معروفٍ قمت به،

وليس طمعا بأجرة مادية...
وهنا بدأت الرافة تدخل قلب أبي أحمد، إضافة إلى الفضول الشديد لمعرفة مشكلة صديقه سعيد، لذلك قرر بينه وبين نفسه أن يسافر معه في سيارته، لعله يشبع فضوله بما سيسمعه من قصة الرجل.

- يا سيد سعيد أنا أسمع ولا أتقن رواية ما أسمع، ولكن ما الذي تفعله هنا يا أبا...؟

- لست أبا فلان نادني باسمي... سعيد.

- كما تشاء، ولكن في الغربة كانوا ينادونك أبا سلطان.

- سلطان مات طفلاً، وطفلة رضيعة قتلتها هي وأمها أي زوجتي وأم زوجتي التي هي حماتي أيضاً...

- يا إلهي! مصيبة هذه! لا بل فاجعة... تفجير؟ أم زلزال؟؟

- لا ليس زلزالاً ولا تفجيراً... سأخبرك ولكن ليس الآن بل في وقت آخر... والآن لماذا لم تعرفني؟! أنا عرفتك على الفور... كنت ألحظك في مناسبات القرية، والحفلات ومناسبات العزاء وغيرها، ولكنك كنت تتجاهلني...

لم يرد عليه أبو أحمد، لكنه تذمر قليلاً، وقال:

- لماذا لم تكلمني إذاً؟

ثم تابع حديثه:

- تأخر المكروباص كثيراً، فعاد الرجل يطلب منه أن يركب معه لأن سيارته قد امتلأت بالركاب ويبدو أن إبراهيم كان آخرهم.

ركب إبراهيم في المكان الفارغ في المقعد الخلفي، بينما السائق سعيد قاد سيارته وانطلق بهم.

لم يطل بهم الطريق طويلاً حتى نزل جميع الركاب، فتوقف سعيد، ودعاه للانتقال إلى المقعد الأمامي بجانبه:

- حظك جيد يا أبو أحمد.

- الحمد لله.

- أراك مهموماً كثيراً...

- ومن منا دون هموم يا صديقي؟

- نعم ولكن هناك نسب وفروق.

- همك بسيط... قلت لي بأنك سترحل الى المدينة وتبحث عن عمل، أما أنا يا سيدي أبحث عن عزرائيل!

نظر إبراهيم إليه مبتسماً:

- لن تجده ولكنه عندما يحتاج إلى أحد يأتي إليه بنفسه.

- نعم، ولكنه قد يندس في قلب إنسان... وينفذ أغراضه عن طريقه.

- فهمت الغاية ولم أفهم السبب.

- عندما تنهي شغلك تجدني في مقهى السمراء، وسأنزلك بقربه حتى لاتتوه عنه، حينئذ ندردش في همومنا معاً...

- حتى متى ستبقى هنا؟

- ستجدني فيه في أي وقت... إنه مقرّي ومستقرّي، لكن لا تنسَ أن تذهب إلى الرجل الذي أرسلتك إليه، سيقضي جميع حاجاتك، لديه شركة مقاولات إذا كنت تود العمل في مهنة البناء. هو مثل أخي بل أفضل منه، سيحل جميع مشاكلك، إنما أخبره أنك من طرفي...

نزل من السيارة ثم ودعه، وذهب يبحث عما جاء لأجله. كان الحظ حليف أبي أحمد، فقد وجد عملاً في إحدى الشركات التي تخص صديق سعيد.

في إحدى مهن البناء، ودله صاحب العمل على بيت صغير، في أحد أطراف المدينة مبني على قطعة أرض

واسعة، يستطيع أن يستأجره من صاحبه مقابل ترميمه والعناية به لمدة خمس سنوات، وكان هذا أكثر مما يطلبه، بل أقصى ما يحلم به.

ذلك البيت هجره أصحابه منذ سنوات بسبب السفر، ولم يكن هناك من نية للعودة إلى هنا... لقد استقروا هناك، وأراد والد صاحب البيت أن يرممه لعل وعسى أن يعود ولده يوما ما. وعرف إبراهيم منه بأن أصحابه قد تقدموا بطلب هجرة إلى كندا ، وجاءتهم الموافقة. وهم يقيمون منذ سنوات في كندا.

كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، فكان لا بد له من العودة إلى المقهى الموعود، وبالتالي إلى أسرته بدأ القلق يتسرب إلى أفكارهم حسب ما كان يدور في رأس أبي أحمد، وهي الحقيقة.

*****

عدالة السماء

الفصل الرابع المشهد الأول

قضية شرف

وعلى طاولة منفردة في مقهى السمراء... دارت أحاديثهما:

- طَمئنِّي، هل عثرت على ضالتك؟

- الحمد لله، لقد منحني الله أكثر مما تمنيت.

- قلت لك من البداية إنك محظوظ...

- في السماء رزقكم وما توعدون والفضل لك ولتلك الصدفة التي جعلتني التقي بك.

- المهم أنك حصلت على ظالتك في هذه المدينة الجبلية الباردة شتاء.

- مهما تكن المدينة باردة ليست هي أبرد من حياتنا في القرية.

- إن أخبرتك بقصتي هل ستسمعني حتى النهاية؟

- وما يمنعني؟ لكن ألا أستطيع الاتصال بأهل بيتي لأطمئنهم؟

- يوجد هاتف عمومي في المقهى يعمل على قطع العملة

الفضية.

- حسنٌ، سأتصل بجيراني وهم يطمئنون أهل بيتي، لايوجد هاتف في بيتي.

دقائق وعاد أبو أحمد:

- اسمع ياصديقي... أنا مطلوب بجريمة قتل ثلاثية زوجتي وحماتي وابنتي الرضيعة.

ارتعش بدن أبو أحمد وكاد أن يغشى عليه لهول ماسمع، ثم هب واقفاً خوفاً ورعباً!

أمسك السائق بطرف ثوبه وأجلسه بقوة:

- ما بالك وكأن عفاريت الأرض كلها قد ركبت رأسك؟ لوكنت مكاني لا سمح الله لفعلت مافعلته أنا...

فهم أبو أحمد من تصريحه هذا بأن الجريمة جريمة ربما دفاع عن النفس أو جريمة شرف.

عاد الهدوء إلى نفسه، وأخذ يصغي باهتمام شديد وينفعل مع كل كلمة يقولها سعيد:

- كنت أعمل سابقاً على سيارة أجرة أملكها، ولسوء حظي خرجت ذاك الصباح من بيتي مبكراً أبحث عن رزقي، ورزق عيالي، وفجأة رأيت سيدة حاملاً

كما رأيتها تلك اللحظة، استوقفتني وقالت لي:

- أرجوك، أنا على وشك الولادة، انقلني إلى المشفى.

أشفقت عليها وفتحت لها باب السيارة الخلفي، ودعوتها للصعود، لكنها رمت حقيبة يدها على المقعد وأغلقت الباب، ثم اتجهت إلى الباب الأمامي، وجلست في المقعد المجاور لي، أي للسائق!

وقالت، وهي تكاد أن تصرخ، فربما كانت في حالة ولادة وشيكة:

- أحب الركوب هنا.

- كما تشائين.

- وهذه أجرتك سلفاً.

ما أن وصلنا إلى المشفى حتى قالت لي :

- انتظرني هنا في صالة الانتظار حتى أَلِد، بعدها سأعوضك عن الوقت الضائع بأكثر مما تتوقع.

عندما فكرت بالأمر كثيراً، أقنعت نفسي بأنني سأرتاح من التجوال ساعة أو ساعتين والبحث عن زبائن، وبالتالي في هذا توفير للوقود، ومصاريف السيارة.

وافقت بعد تردد، عندها قالت لي:

- اجلس في الصالة، وإليك هذه الحقيبة فيها جميع متعلقاتي الشخصية وكل مايخصني من نقود وأوراق، تجد فيها أيضاً عنوان زوجي وأهلي إذا أصبت بمكروه أثناء الولادة، عندها بإمكانك البحث عنه والتواصل معهم.

أخذ سعيد نفساً عميقاً من سيجارته ثم نفثها ببطء شديد، فكونت سحابة غطت وجهه، وكأنه بهذا يريد أن يغطي حالة القلق التي يعاني منها، ثم قطع حديثه فجأة، وقال:

- هيا بنا... سنكمل حديثنا في السيارة أثناء عودتنا.

- فعلاً كنت أتمنى العودة إلى القرية في هذا الوقت كي لا يقلقوا علي.

وفي السيارة استأنف سعيد حديثه:

- وافقت على ما اقترحته علي، ولم أحدد مبلغاً أجرة انتظاري، وانتظار سيارتي.

ثم أردف قائلاً:

- مر علي حوالي نصف ساعة قبل أن أغفو على المقعد الذي أجلس عليه، وفجأة استيقظت على صوت الممرضة،

وهي تصيح أمامي مبارك... مبارك لقد رزقت بمولود ذكر كأنه القمر ليلة تمامه.

حقيقة تبسمت ساخراً ولكني لم أرد.

ويبدو أنها كانت تنتظر بشارة مني، لكنها عندما لاحظت برودة استجابتي زمّت شفتيها وانصرفت، ورأفة مني تصنعت الفرحة، وناديتها ثم أعطيتها بعض النقود.

كان أبو أحمد يصغي بلهفة وشوق لمعرفة النتيجة، إلا أن أحد الركاب أشار إليه بالتوقف، فتوقف هو عن السرد.

وما أن تحركت السيارة بهم حتى قال له إبراهيم:

- تفضل أكمل.

فقال وهو ينظر إلى الطريق أمامه:

- ليس الآن... ليس الآن...

ثم بدأ يترنم بأغنية شعبية معروفة..

وبوصولهما إلى قريته قال أبو أحمد:

- غداً صباحاً يجب أن تمر علي، سآخذ زوجتي معي لنضعها في البيت لتنظيفه، ونذهب إلى المقهى، وهناك تكمل لي قصتك الغريبة.

تفارقا على هذا، ودخل أبو أحمد إلى بيته ليبشر زوجته بأن

الأمر قد تيسر لهم، وقريباً سيرحلون إلى المدينة.
هنا لا تسل كم كانت فرحة الزوجة أم أحمد حين أخبرها بالأمر...
صحيح أن الزغاريد لم تكن تسمع، لكن رقصات الفرح في قشعريرة جسدها كانت كافية لتعبر عن سعادتها الغامرة...
بعد اليوم ستكون حرة في بيت يخصها، وإن كانت لاتملكه، ولكن على الأقل ستمتلك حريتها وقرارها فيه ولن تحرج من عبث أولادها.
بدأت تحضر العشاء وهي تترنم بكلمات غير مفهومة، ولكن لو أن أحداً سألها حينها عما تقوله ورفعت صوتهاقليلاً ليُفهم منها تلك الجملة:
(والله وصرتي حرة ياوردة. والله وصرلك بيت ياوردة)

****

عدالة السماء

الفصل الرابع المشهد الثاني

قدَر

وصل أبو أحمد إلى بيت والده الذي ينوي الرحيل منه، وعلى الفور اتجه نحو غرفة أبيه... قرع باب غرفة والده يريد الاستئذان قبل رحيله والدموع تملأ عينيه، قرع الباب ونشيجه يسبق طرقات قبضته على باب غرفة والده، ومابين كلمة تفضل وفتح الباب، مرت في عقله قصة حياته كاملة في بيت العائلة هذا.

لكن لم يخطر في باله الندم عمّا جاء لأجله، إنه أمام واقعٍ، الظلم فيه أقل من الحقيقة التي تعلن نفسها اليوم، وهي حاجته إلى تطوير حياته بالشكل اللائق لإسعاد أسرته... لقد زاد عدد أفراد عائلته، وأصبح نوم العائلة في غرفة واحدة مستحيلاً، وزد على ذلك مضايقات زوجة أبيه. فالرحيل إن عاجلاً أم آجلاً قادم لامحالة.

استفاق من أفكاره على فتح والده للباب .

لم يكن من السهل عليه التخلي عن منزل قضى فيه سلسلة حياته من طفولة وصبا وشباب...

عندها هاجت عواطفه وأجهش ببكاء منعه من التعبير عن غايته، إلا أن والده قطع له تردده قائلاً:

- بالتوفيق يا ولدي.

استعاد إبراهيم بعضاً من رباطة جأشه، لذلك تقدم وسلم على والده مقبلاً يده معللاً الرحيل بالظروف القاهرة وضيق الحالة المادية، وأيضاً ضيق البيت الذي لم يعد يتسع للجميع، وليس بإمكانه أن يزيد البناء فيه.

لم تطل مدة وقوفه حتى انحنى من جديد ثم سلم على والده، وقال مودعاً ومبرراً رحيله من جديد:

- يا والدي أنت تعلم أن إنتاج العمل في الأرض هنا لم يعد يكفي أسرتينا، لهذا سأذهب للعمل في المدينة وأنتقل أنا وأسرتي إليها.

وكان أبو إبراهيم يعلم سبب مجيء ابنه وينتظر تلك الكلمات، لذلك لم يحاول التمسك بولده وطلب البقاء منه في القرية، لقد مرت هذه الفكرة بعقله قبل قليل، وإن كانت عاطفة الأبوة لم تظهر بعنف، لأنه يعلم جيداً بأن ولده يبحث عن استقلاليته، وعن مستقبل ولديه، هذا من جهة ومن أخرى كان هذا مطلب زوجته الجديدة.

لذلك قال على الفور:

- افعل ما تراه صالحاً لك ولأولادك.

- أشكرك ياوالدي... الأهم ادعُ لنا بالتوفيق.

- وفقك الله يا بني، وأنار لك دربك، ولا تنس أن تزورنا دائماً أنت والأولاد.

لحظات وقرع الباب المفتوح من جديد حيث دخلت زوجته مباشرة، فقبلت يد عمها وطلبت منه الدعاء لهم بالتوفيق، ثم سألت:

- أين امرأة عمي؟ أريد وداعها.

- إنها في غرفتها.

منذ الليلة الماضية دخلت أم أحمد بيت حماتها وودعتها قبل أن تنام، لقد كانت حماتها تنتظر رحيل كنتها بفارغ الصبر، لذلك لم تقل كلمة واحدة، ولكن عبرت عن حزنها بدموع كاذبة!

تعانقتا والشفاه تتسارع قبلاتها في الهواء دون ملامسة الخدود، وببسمات ساخرة شامتة أتقنتا تمثيلها.

لم تستطع أم أحمد النوم تلك الليلة... فرحتها اليوم أقرب

إلى فرحتها ليلة دخلتها.

بالأمس كانت الفرحة تعبر عن انتقال من واقع مؤلم قاس إلى واقع سعيد، واليوم تتكرر تلك الفرحة، حتى إن اللحظات التي كانت تغمض عينيها فيها لم تكن سوى إطباق الخائف من أن لا يتحقق الأمل، فما زال حتى الآن في المجهول.

لكنها مع هذا تناجي نفسها وتقول:

- بعد ساعات فقط سنكون في عالم آخر تسوده الحرية والاستقلالية...

ثم تخاطب نفسها من جديد:

- ستعيشين يا أم أحمد مستقلة بإرادتك وحريتك... هناك ستعتنين بولديك وزوجك بطريقتك الخاصة... نعم أحمد وحامد ولداي سأربيهما كما أشاء... بعيداً عن القهر وظلم الآخرين... ولا إرادة فوق إرادتي.

كانت تغلق عينيها ثم تدعو الله شاكرة، كيف خرجت من حكم حماتها الأولى لها بوفاتها، على الرغم من أنها كانت تتحمل شقاوة الأطفال، فهم أحفادها على الأقل. أما

الثانية التي كانت تفتعل العداوة لهم حتى تلزمهم بالرحيل عنها فتقول كلما شكت من عبثهم:

- كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا تعثرت دابة في أي مكان من بلاد المسلمين فأنا المسؤول عنها.

وابنك أحمد وأخوه هما من يسببان كل تلك العثرات.

نعم تلك حماتها الجديدة التي وضعت عقلها نداً لعقل الطفل أحمد، فكلما حصلت أذية لطفل أو سقط طفل عن دابة تتهم أحمداً بذلك، مملوءة بالحقد على كنتها وزوجها أحمد وولديه، وأمام زوجها كانت تظهر دوراً معاكساً مملوءاً بالرياء والنفاق.

أما أبو أحمد فقد غط في نوم ثقيل وهو يحلم بالحياة الجديدة، وأحياناً يتحول فكره ثم يتساءل مع نفسه:

- لماذا لم يكمل السائق سعيد حكايته؟ هل فعلاً كان السبب وجود راكب آخر في السيارة، ولا يريد أن يطلع أحداً على خصوصياته؟ أم خجلاً؟ ثم لماذا هو مطلق السراح بعد تلك الجرائم؟

ثم يعد نفسه بأنه سيطلب منه أن يكمل حكايته له لقد

وجد فيها إثارة وتشويقاً.

وأحياناً يقول:

- الأفضل أن أبتعد عنه.

وفي الصباح لم يجد سعيد حاجة لاستعمال منبه السيارة كي يحث أبا أحمد على الاستيقاظ والخروج، فقد كان أبو أحمد وزوجته وولداه أمام البيت بانتظاره.

ركب أبو حامد بجانب سعيد، وركبت وردة وولداها في المقعد الخلفي مع بعض الحاجيات المنقولة.

- أكيد أنت متشوق لسماع بقية القصة.

- لا أخفيك بأنني نمت وأنا أفكر فيها.

- عندما نصل بيتكم الجديد، نترك زوجتك والأولاد ونذهب معاً إلى مقهى السمراء، ونعود لنأخذهم بعد الظهر.

- نعم هذا ماكنت أفكر به.

- وسأحكي لك القصة كاملة.

تابعت السيارة السير في الطريق وهما يتبادلان الحديث.

قال أبو أحمد:

- لا أصدق يا سيد سعيد بأنك قاتل، ولايبدو عليك ذلك!

- لو كنت مكاني لزدت العدد شخصاً آخر، ولكني تمالكت أعصابي وتركته يرحل، لكن عارياً...

- يا إلهي... ماذا تقول؟!

-عندما نجتمع في المقهى ستسمع مايشيب له الولدان.

وصلت السيارة بهم إلى منزل أبو أحمد الجديد.

قال سعيد مودعاً:

- دعنا نتقابل بعد الظهر في المقهى.

ولوح بيده مودعاً.

وقفت أم أحمد والسرور يجتاح كيانها مرتعشة من شدة السعادة تنظر إلى البيت من الخارج،

فتراه قمة في الجمال، على الرغم من تشققاته الخارجية وألوانه الباهتة بفعل الشمس والبرد وطول الزمن.

لكنها دخلت إليه وهي تشعر بأنها إحدى الأميرات تدخل قصرها... تجولت فيه وهي لا تكاد تصدق نفسها، وقالت منادية زوجها:

- يا إبراهيم... إن جمال هذا البيت في وجوده على الأقل! دعنا نفكر في شرائه يوماً... لذلك سنصلح الضروري الذي يخدمنا فقط، أما بقية الترميمات فدعنا نتركها للزمن...

لم تكمل كلامها حتى قُرع الباب.

تبين أن القارع صاحب البيت نفسه ما جعل الجميع يعيشون لحظات مرعبة، خشية أن يكون قد غير رأيه:

- سيد أبو أحمد... حتماً ستعذرني...

- لماذا خيراً إن شاء الله!

- بعد التفكير رأيت بأن اتفاقنا غير مجد...

احتبست الكلمات بحلق أبو أحمد، ولم يستطع الرد مباشرة، لكن أم أحمد التي كانت تتنصت من الغرفة الثانية، أجابت:

- وهل هكذا تكون اتفاقات الرجال؟!

- لكني جئت مقترحاً وليس ناكثاً للاتفاق.

- تفضل.

بعد أن تنفس الجميع الصعداء.

- أريد أن أطرح تعديلاً رضائياً للاتفاق.

- قلت: تفضل هات ماعندك.

- إن ترميم المنزل لن يخدمني حالياً، ولن يفيدكم مستقبلاً، لذلك قررت البيع، ولكم الأفضلية.

- لكن ليست لي قدرة على الشراء... ولا حول ولا قوة إلا بالله، ما هذا الحظ السيء(اجت الحزينة على المدينة لتفرح ما لاقت مطرح) واستغفر الله مما أقول.

- وأريد المبلغ نقداً، وقيمة البيت عشرة ملايين ليرة.

- إعجاز ما فوقه إعجاز... وهل ترانا من أصحاب الملايين؟؟ جئنا نستأجر فقط.

- إذاً سأبيع غيركم، ومضمون اتفاقي معكم يبقى ساري المفعول طالما البيت باسمي، أما إذا بعت فسيكون اتفاقكم مع المالك الجديد، ولكم حق البقاء فيه أقله مدة سنة بعد توقيع العقد مع الشاري.

في هذه اللحظة سمع أبو أحمد بوق سيارة سعيد في الخارج جاء ليصطحبه إلى المقهى، ناداه من النافذة طالباً منه الدخول، فدخل سعيد ووجد الوجوم يخيم على الوجوه.

شرح أبو أحمد له القصة كاملة... فسأله سعيد:

- كم عندك من المبلغ؟

- الحمد لله... لو كان لدي عشر المبلغ لكنت زدت غرفة على منزل والدي، ولما تعرفت عليكما أصلاً، ثم قهقه ببرود.

- حسن...

ثم أخرج دفتر الشيكات من جيبه موجهاً حديثه إلى صاحب البيت:

- باختصار ياصديقي، بعتني إياه بسبعة؟

- لا...

- ونصف؟

- لا...

- ثمانية؟

- لا...

- ونصف؟

وأغلق القلم، ثم طوى دفتر شيكاته وهمّ بوضعه في جيبه.

- تسعة... واكتب شيكاً بهم، ولنذهب الآن كي نبدأ بإجراءات نقل الملكية فوراً...

نظر سعيد إلى أبي أحمد:

- سأحتاجك كشاهد، تعال معنا... أحضر هويتك معك... وأنت يا سيدتي تابعي عملك، واتفاقكم السابق مع الرجل ساري المفعول...

لم يمض على ذهابهما ساعة حتى عادا دون صاحب البيت القديم:

وقال باسماً أمام أم أحمد:

- البيت الآن تحت تصرفكم...

وهمس في أذن أبي أحمد:

- أمامي محاكمة وحكم لا أعلم شدته أو مدته... ولكن على الأقل حسب قول المحامي، لن تعلق مشنقتي قبل سنوات أقضيها داخل السجن، وهذا رقم حسابي إن استطعتم السداد وأدخلتم المبلغ بالتقسيط المريح خلال هذه المدة عندها سيكون البيت ملكاً لكم. وإن لم تستطيعوا سيكون اتفاقكم السابق مع المالك القديم هو القائم مع تمديد المدة حسب الظروف حينذاك...

والمعاملة الآن في يد معقب للمعاملات ومحام، والخيرة فيما اختاره الله... أكملي عملك يا أم أحمد، وأنت تعال نذهب إلى المقهى لنكمل حديثنا، ونكتب اتفاقاً ودّياً بيننا...

عدالة السماء
الفصل الخامس

أب بالإكراه

وفي المقهى جلس الاثنان يتابعان حديثهما...
بدأ سعيد بالسؤال:
- أين وصلنا بحديثنا أمس؟
- عندما دخلت مع المرأة الحامل المشفى واقترحت هي عليك انتظار ولادتها لتعود معك...
- نعم... عندها وافقت طمعاً بفتات من العملة سأتقاضاها، ولم أعلم أن وراء الأمر مصيبة كبرى وستجر أخرأكبر...
جاءت الممرضة وهي تبشرني فرحة:
- مبارك عليك ولدٌ وكأنه البدر في ليلة تمامه...
- ليس ابني يا أختي... ما أنا إلا سائق تكسي جئت بالمرأة إلى هنا...
زوت فمها وهي تذهب عني حيث يبدو أنها كانت تأمل مني مكافأة على بشارتها بالمولود، وقد ظنت فعلاً بأنني زوج المرأة، لكنني رأفت بها، وقبل أن تبتعد ناديتها

ونقدتها مبلغاً شكرتني عليه. وبعد حوالي ربع ساعة جاءت ممرضة أخرى تحمل المولود ثم ناولتني إياه باسمة:

- مبارك... والحمد لله على سلامة الولد ووالدته... لكن لاتنس تسجيله في النفوس على دفتر العائلة خلال عشرين يوماً...

تبسمت وبقيت صامتاً، لكني أخذته من يدها ببرود، وكانت أمه قد وصلت في تلك اللحظة:

- سبحان الله... ما أشبهه بك! ومن شابه أباه ما ظلم!

ثم أردفت:

- هيا يا حبيبي... لنذهب إلى البيت... انتبه النقود في حقيبتي التي تركتها معك... ادفع حساب المشفى واتبعني... سأسبقك إلى السيارة... أنا لا أكاد استطيع الوقوف...

- ماذا تقولين؟ ابني؟!! ويشبهني إنك حتماً تمزحين.

- ماذا أتنكر ابنك؟ ألاتخاف الله يا رجل؟!

- اسمعي... ابحثي عمّن ينقلك...

- سأرحل ولا أريد نقودك. ثم أخذت تولول وتتظاهر أنها تستهجن من تنكري للمولود.

- انظروا يابشر... يتنكر لولده!

علا صوتها وتجمع بعض الحضور... طلبوا شرطة المخفر في المشفى. رويت قصتي للحضور لم يصدقني أحد، بل كان الجميع يعتبر الأمر عبارة عن خلافات بين زوج وزوجته ليس إلا! أقنعتهم بصراخها، وعويلها، وتمثيلها حتى ظن الجميع أنني غررت بالفتاة ثم تخليت عنها!

في النهاية حضر رجال الأمن وقرروا اقتيادي للتحقيق، ثم تم توقيفي في مخفر المشفى لعرضي في اليوم التالي على القضاء.

نظر رجال الأمن إلى القضية على أنها ما بين جريمة زنا أو احتيال لا يمكن البت فيها دون عرضها على القضاء، أما المرأة فقد احتجزت ووليدها في غرفة داخل المشفى...

- قصة غريبة جداً لاتصدق!

- بل عليك أن تصدق، لأنك حتى الآن لم تسمع الجزء الأهم والأغرب.

- لا حول ولا قوة إلا بالله...

- دعنا نذهب الآن للصلاة ثم نعود...

- يا إلهي هل يوجد في الدنيا خبث بهذا الشكل؟!

وفي الطريق قال أبو أحمد:

- تفضل يا صديقي أكمل، ولكن أيضاً أتمنى عليك أن تخبرني نبذة بسيطة عن حياتك فهناك الكثير من الغرائب.

- مثل ماذا؟

- الثراء الفاحش الذي أنت فيه؟! عملك البسيط على سيارة خاصة؟! الحرية التي تتمتع بها؟! تحمل في عنقك جريمة قتل ثلاثة أشخاص؟ ومع هذا أنت مطلق السراح؟!

وليست لديك أسرة، وأنا أعلم أنك لست من منطقتنا هذه، إنما تسكن في القرية المجاورة... وصراحة أقول: لماذا تروي لي هذه القصة الغريبة؟

- عجولٌ أنت يا صديقي! ستعلم كل شيء من خلال روايتي.

- دعنا الآن نمر على البيت قبل أن نجلس في المقهى.

جلس سعيد ينتظر أبا أحمد الذي دخل ليطمئن عن زوجته وعملها في تنظيف المنزل.

وفي الداخل:

- كيف الحال يا أم أحمد؟

أجابته باسمة ومياه الشطف تغمر الأرض، وثيابها مبتلة بالماء أكثر من الأرض:

- الحمد لله... وكما يقول المثل:

(نارك ولا جنة هلك) بدلاً من (هلي).

يجب أن نعمل ليل نهار، بل المستحيل حتى نمتلك هذا البيت ونسعى لدفع ثمنه،

يا إلهي ما زال في الدنيا أمثال هذا الرجل؟!

- بإذن الله... هل أكلتم شيئاً؟

- نعم، وأنت؟

- وأنا أيضاً أكلت في المقهى...

- لكن أين الأولاد؟ لا أراهم!

- إنهم في الغرفة الثانية يلعبون ويتزلجون على البلاط ويدلقون الماء، والله صبرتِ ونلتِ ياوردة!

هكذا كانت تعبر عن سعادتها أمام زوجها...

- ذاهبان إلى المقهى، وسنمر لنأخذكم بعد آذان العصر إلى القرية.

ردت عليه ضاحكة:

- بل دعني أنم على البلاط الليلة! ياربي... ما أشد فرحي وسعادتي!

عادا من جديد إلى المقهى:

- وماذا بعد ياصديقي؟

- بالنسبة لتاريخ حياتي سنصل إليه في حينه.

- تفضل. أقسم بالله أن ما ترويه لا يوجد مثله في ألف ليلة وليلة.

- وهل قرأت ألف ليلة وليلة؟

- وهل تظنني جاهلاً؟ لقد درست حتى نهاية المرحلة الإعدادية، ولكن لعدم وجود مدرسة ثانوية في القرية توقفت عن المتابعة.

- حسن يا صديقي. حُوِّلت القضية برمتها إلى المحكمة، وكان الحاقدون علي أكثر من المتعاطفين معها، وفي ظنهم أنني أغويت الفتاة ولعبت بعواطفها ومصيرها، وبرأيهم كان واجبي أن أضمها إلى عصمتي، خاصة أن الشرع يبيح تعدد الزوجات. ولكنني بنظرهم إنسان مجرم وقذر.

وفي قاعة المحكمة كان لكل كلمة أقولها صدى هامس لكلمات توجه خفية لي:

- حقير... دنيء... سافل...

بل كنت أسمع همس أصوات تفلٍ وتأخيس: (أخس... أخس).

وفي إحدى الجلسات، طلب القاضي مني بعد قسم اليمين أن أنظر إلى ضحيتي بإمعان (هكذا وصفها لي).

فقلت له:

- سيدي القاضي، هذا يعني أنك أصدرت حكمك سلفاً... أنا مذنب...

- هي صفتك بالادعاء...

- وهل تصدق هذا ياسيدي؟

- انتبه... أنت هنا لتجيب فقط وليس لتسأل، ثم الأفضل لك أن تكلف أحد المحامين كي يدافع عنك، وإن كنت لاتملك المصاريف فالمحكمة ملزمة بتكليف أحد محاميها.

- الحمد لله ياسيدي... الحالة المادية جيدة...

وبعد أخذ ورد تأجلت الجلسة حتى كلفتُ محامياً بارعاً.

- ثم؟

- كان أول طلب للمحامي أن تسمح المحكمة بإجراء التحاليل الطبية، وهذا ما كان...

- وهل أنقذتك نتيجة التحاليل؟

- نعم أنقذتني من السجن، لكنها سترسلني إلى المشنقة!!!

- استر يا رب... لم أفهم؟

- يبدو أنك فقدت صبرك للاستماع.
- لا بل أنا مندهش جداً مما تقول.
- نعم... أصر المحامي على طلب بعض التحاليل التي لهاعلاقة مباشرة بإثبات البنوة.

****

عدالة السماء
الفصل السادس

مسألة معقدة

- قلت وسأعيد... تكررت الجلسات وحريتي مقيدة... وبعد طول انتظار، وصلنا إلى الجلسة الختامية... أدخلوني إلى القاعة ثم افتتحت الجلسة للنطق بالحكم، وبعد الشكليات:

- اسمك؟ وعملك؟

- سعيد... أعمال حرة في الغربة...

وبعد مداولة أحرقت ما تبقى لدي من صبر، وشكليات أخرى، ضرب رئيس الحكمة بمطرقته وقال:

- حكمت المحكمة بعد المداولة على المتهم سعيد بالبراءة التامة من جريمة الزنا وإغواء قاصر، ويخلى سبيله دون سند كفالة.

- هل رأيت ياصديقي أعدل من هذا الحكم؟ لم تسعني الفرحة ساعتئذٍ.

- وعلى هذا قمت بردة فعل انتقامية؟؟ وبعدها قتلت المرأة التي اتهمتك بنفسها ووليدها، أليس كذلك؟

- كلا... وهل يستحق الأمر أن أجعل من انتقامي ثمنا لحياتي؟ وفي قضية ثبتت براءتي منها؟!

- يا إلهي... لقد ظهرت ألغاز جديدة!! وما حكاية جريمة القتل؟ هل اتهمت بها؟!

- لا بل هي جريمة حقيقية نفذتها بيدي... ولكن دعنا الآن نذهب إلى بيتك... لقد سرقنا الوقت وأخذنا منه أكثر مما يجب للعودة بكم إلى القرية، لتجهيز أغراضكم...

لا تخف يا صديقي... الوقت ما زال واسعاً للكلام وكل يوم سنلتقي، ولكن أرجوك أن... قاطعه أبو أحمد قائلاً:

- قلت لك إن ما أسمعه في أذني يحكم عليه بالمؤبد في رأسي.

- معك حق هيا نعود إلى بيتنا الجديد.

أنهت أم أحمد تنظيف البيت الذي كان مهجوراً منذ سنوات، كما بدا لهم حين دخلوه في المرة الأولى... وجلست داخل البوابة المتهالكة تنتظر زوجها ورفيقه، وتسمع أصوات الآذان الصادرة عن المآذن البعيدة، ففي هذا المكان لا يوجد جامع قريب، ولا حتى جيران متلاصقين، فالبيوت بعيدة إلى حد ما والمنطقة تقع في أطراف المدينة.

تمتمت:

- سبحان الله... من الريف وإلى الريف، ولكن هذا خير ألف مرة من معاشرة حماتي الظالمة وأمثالها.

وأخذت تنظر نحو المنزل تتفقده من الخارج بالكامل، وكأنها تراه للمرة الأولى، نعم تفقد المنزل كان إحساسها الآن، أما عندما دخلته، فكانت تتصرف كالصياد الذي أصاب غنيمة نادرة وطوقها بكلتي يديه خشية أن تَفِرّ منه.

بدأت تتفحص بنظرها حديقة البيت أولاً وتناجي نفسها:

- البيت مهمل، والحديقة مليئة بالأشواك البرية، لا يرى الناظر من خلالها أية بقعة تراب، قد تكون سنوات عديدة مرت عليها دون حراثة أو عناية... سأجعلها جنة بإذن الله... أنا مزارعة ابنة مزارع هذه مهنتي.

ثم دخلت البيت من جديد وأخذت تتفقده وتبني توسعات وهمية له في فكرها وتحاكي نفسها:

- البيت مكون عن غرفتين كبيرتين متلاصقتين، وخلفهما مطبخ صغير وحمام سنستعمل غرفة لي ولزوجي، والغرفة الأخرى للأولاد، وفي المستقبل نبني غرفة لأحمد ملاصقة من الجهة اليمنى، وأخرى لحامد في الجهة

اليسرى، ونزيل الجدار الفاصل بين الغرفتين، وبذلك تتوسع غرفة نومنا كثيراً، وأرى بجانب السور غرفة صغيرة...

ذهبت إليها لتستكشفها، وجدتها غرفة متوسطة المساحة سقفها منخفض قليلاً، فيها بعض الأدوات الزراعية، فعلمت بأنها مستودع، لكن هذا المستودع بحاجة أيضاً إلى ترميم، فقررت أن تترك العناية به حتى يقطنوا المنزل.

- فلا داعي للعجلة الآن وهناك أولويات...

انتقلت أم أحمد إلى المدخل الرئيسي للمنزل، وأخرجت ولديها من الحديقة، ثم أقفلت الباب خلفها. كانت تخشى من أن تتركهم يلعبون داخل الحديقة خشية أن يصابا بأذى، وفي هذا الفصل تكثر العقارب والأفاعي السامة، وخاصة أن الحديقة مغطاة تماماً بالأعشاب والأشواك البرية.

لاحت لها من بعيد سيارة صديق زوجها قادمة، وكانت قد جهزت نفسها للعودة إلى القرية، على أمل أن تعود مع زوجها محملة ببعض أغراض بيتهم في صباح اليوم التالي. الآن أصبح كل شيء جاهزاً في البيت للسكن.

وفي اليوم التالي كان إبراهيم وزوجته منذ الفجر بانتظار سعيد وسيارته... لم تمض لحظات، حتى توقفت سيارة من نوع بيك آب أمامهم... دنا أبو أحمد نحوها وأشار إلى زوجته وأولاده بالدخول والتستر داخل البوابة، ثم سأل عن الغاية من وقوفها أمام منزله، وفي اللحظة نفسها وصل سعيد بسيارته الخاصة المعتادة. فألقى السلام ثم قال:

- أين أغراضكم؟ لا أراها جاهزة!

- هل أنت من أرسل هذه الشاحنة الصغيرة؟

- نعم... ويبدو أنني نسيت بالأمس أن أخبرك بأنني سأرسل لكم سيارة ثانية لنقل أغراضكم إلى بيتكم الجديد

وخاطب سائق البيك آب:

- انزل يا محمد. وساعدهم في تحميل الأغراض، ولتبق أم أحمد في البيت لتجهيز بقية العفش... ربما نتمكن عصر هذا اليوم من أن ننقل قسماً آخر منه.

تم تحميل السيارة بأكبر كمية من الأغراض ثم انطلقا معاً، ثم ركب أبو أحمد بسيارة سعيد، وبقيت أم أحمد وولداها لتكملة مهمتها.

ما أن دخلت أم أحمد إلى صحن الدار حتى لفت نظرها حركة الستارة في نافذة حماتها،
كانت حماتها فعلاً تراقب مايحدث من فتحة صغيرة بجانب الستارة وتفرك يديها فرحاً وتتمتم:
(روحة بلا رجعة يا وردة)... (درب يسد وما يرد يا وردة)... سأكسر خلفك أكبر آنية فخارية وأثمنها... ما أجمل النصر والحرية!
أما في صحن الدار، فكان أبو إبراهيم يجلس على المصطبة الداخلية تترقرق الدموع في عينيه... يجفل كلما سمع طقطقةً أو جَرّ قطعة عفش من أغراض بيت ولده،
فيتذكر إبراهيم ولده، وعبث أطفاله بكل ما تصل أيديهم إليه. ويتذكر ما كان يملأ البيت من ضجيجهم
وصخبهم... فيضغط على أعصابه كي لا يقفز نحو زوجة ابنه وينهيها عن الرحيل، ولكنه يهدأ عندما يتذكر واقع الأمر، ثم حاجة زوجته إلى الغرفة، كما أن حاجته للغرفة فرضت عليه أن ينفذ طلبها.
نظر أبو إبراهيم إلى الأطفال اللاهين عما يحدث حولهم، هذه المرة بدأ في بكاء حقيقي.
شاهدته زوجته من خلف الستارة فنادته:

- ما بك يا أبا إبراهيم؟ ألا تعرف مَثَل أجدادنا؟! (بارك الله بالبيت الذي يخرج منه بيت).

- ولكن يا زينب إنه ولدي... وحيدي، وهؤلاء الذين ترينهم أحفادي.

- لا تحزن على فراقهم، سنزورهما بعد أن يسكنوا بيتهم الجديد، ثم قد تكون سعادتهم هناك، بل يجب أن تفرح لهم.

- لا يا زينب سأموت إن رحلوا! كنت أستهين بالأمر في البداية، ولكنني الآن بدأت أشعر بظلمنا لهم.

- ظلم ماذا أيها الرجل؟ هل لأنك أعطيتهم حريتهم ونفذت لهم رغبتهم؟ لاتنس أنهم أربعة أنفس، ونحن اثنان ولدينا قادم جديد، هل ستطعم أرضنا بمحصولها المتواضع أسرتين بهذا العدد؟

- الرزق على الله يازينب.

- لا تخف يا أبا إبراهيم... رزقهم أيضاً على الله والبيت لن يتسع لنا ولهم؟

- عشرة عمر يا زينب، ابني يا زينب رفيق عمري... ثم أجهش بالبكاء.

وضع رأسه بين يديه ولا يعلم سوى الله ما كان يفكر فيه، فليس سوى صمت مطبق ووجوم عام في المكان، بين منتظر للفرج، ومنتظر للسعادة.

إنما هو الوحيد الذي كان ساعتئذٍ يشعر بالحزن... أبو إبراهيم... أما زينب زوجته فكانت متلهفة على رحيلهم لاحتلال الغرفة.

أما وردة فكانت تنتظر بفارغ الصبر عودة السيارة لنقل ماتبقى من أغراضهم المكدسة قرب البوابة.

قطع هذا الوجومَ الصامتَ عويلُ سمية التي استيقظت في تلك اللحظة، وشاهدت أغراض أخيها إبراهيم مكدسة عند البوابة، فنادتها خالتها بنبرة قاسية:

- أليسوا هم من اختاروا الرحيل؟ ثم أنك بعد أسابيع قليلة ستغادرين إلى بيت الزوجية، علام تبكين؟ اطلبي لهم التوفيق والسعادة، بدلاً من النواح والعويل. هاتي اسقينا قهوة من صنع يديكِ...

أما أبو إبراهيم فلم ينبس ببنت شفة، ولم يغير وضعية رأسه...

****

عدالة السماء
الفصل السابع

جريمة بثلاثة رؤوس

ركب إبراهيم بسيارة سعيد وسارت الشاحنة الصغيرة خلفهم، حتى قال إبراهيم متوسلاً:

- أرجوك يا سعيد لم أعد أطيق الانتظار والصبر، أكمل قصتك...

- نعم... أين وصلنا؟

- حكمت المحكمة ببراءتك، ولم يكن سبب جريمتك الانتقام.

- ما شاء الله! متابع جيد...

_ قلت لك، التشويق في قصتك قد تجاوز أساطير ألف ليلة وليلة!

- نعم، الوقت يتسع لنروي بقية القصة أثناء رحلتنا بالسيارة في الذهاب والإياب.

- هذه الجريمة يا أبا أحمد بثلاثة رؤوس وذَنَب واحد.

- لم أفهم...

- أقول لك كي تعلم بأن قضيتي الأولى هي التي سببت تلك الجريمة فقط، ولم يكن لي دور في غير ذلك.

- ما زلنا نعيش في الألغاز حتى الآن.
- لا عليك يا صديقي... الآن ستعرف وتفهم كل شيء.
- نعم... ثلاث جرائم قتل، وما زلت حراً طليقاً!
- قلت لك بأن القاضي برّأني تماماً من جريمة الزنا وإغواء قاصر، وكان من المتوقع أن تكون البراءة غير تامة.
- والسبب؟؟!
- كأن تكون مشروطة لعدم كفاية الأدلة، وإلزامي بالنفقة أو تبني الطفل.
- إنما كان المحامي فائق الذكاء.
- وكان هذا سبباً لارتكاب جريمتي...
- سبحان الله! أحاجٍ وألغاز!
- نعم بعد البراءة سافرت إلى بلاد الغربة ونفسيتي شبه محطمة جداً. وهناك أصبت الخير من خلال عملي، وتعرفت عليك... لكنك سافرت فجأة بعد فترة قصيرة، وأظن إنك لاحظت مدى توفيقي وإنتاجي، وعزوت ذلك إلى أن الله عوضني عما ابتليت به من قضية ظالمة وسجن لا يرحم... وبعد عودتي من الغربة، وكان قد بقي للمحامي مبلغ من المال استمهلته به حتى أعود من سفري، عندها

ذهبت إلى مكتب المحامي، ومن خلال هذا الحوار ستفهم كل شيء:

- أستاذ أشكرك على البراءة...

- واجبي يا أخي أن أظهر الحقيقة.

- فعلاً... وقد جئت لأدفع باقي الأتعاب... ولكن ياسيدي لم أعلم ماذا حدث لتلك المسكينة وطفلها...

- ما زالت قيد المحاكمة في قضية دعارة وزنا، وقد اعترفت على من أغواها... والله إني أرأف بحالها وحال طفلها...

- لماذا لا تتوكل في قضيتها أنت وأدفع أنا أتعاب القضية؟

- لا تشغل بالك... محاميها كان أستاذي، وقد عينته المحكمة.

نظر سعيد إلى أبي أحمد نظرة طالت قليلاً، حتى كادت السيارة أن تنحرف عن الطريق...

- هدِّىء أعصابك يا صديقي، فنحن نسير على عجلات، والطريق خطر بمنعطفاته الحادة وعدم استقامته.

- هل تعلم بأنني كنت أتمنى أن أكون مجنوناً، أو ميتاً حينذاك؟

زوى أبو أحمد شفتيه ثم انتظر تتمة الحديث، فأردف سعيد يروي بقية قصته:

- قدمت للمحامي بقية المبلغ المتفق عليه، فتناوله وقدم لي قائمة بمصاريف الدعوى، وقال هذه خارج الأتعاب... لم آبه فهو يستحق، وقلت له: اعذرني الآن. ولكن مرة أخرى سآتي إليك وأسدد المتبقي، لا أحمل الآن مبلغاً كافياً، أشكرك ياأستاذ على مجهودك.

- هذا واجبي يا صديقي كما تعلم ولكن...

- لا... لا شيء...

وابتلع لعابه، ولكني أخذت الأمر على أن المبلغ لم يرضِه، فسألته:

- أتريد مني زيادة فوق المبلغ المتفق عليه؟

- ليس هذا... تأتأ قليلاً وتظاهر بأنه يتنحنح.

- سبحان الله! محام بقدرتك ويخجل أن يصرح بما في نفسه... تفضل تكلم.

- لا... لا شيء... كل ما في الأمر... كنت سأقول لك: إذا احتجتني مرة أخرى أنا جاهز لخدمتك.

خرجت من عنده وكلي شكوك بالطريقة التي أنهى بها المحامي لقاءنا.

وهنا قال أبو أحمد:

- ثم يا سيد سعيد... حتى الآن لم تخبرني بماذا أناديك... ما اسم ولدك؟

- لن أقول لك إلا بعد أن أنهي حكايتي.

- أحترم رأيك يا صديقي... تفضل أكمل. حتى الآن لم أجد ما يدعو لاقتراف جريمة بهذا الحجم.

- نعم... خرجت من عنده وأنا أفكر بتصرفات المحامي الغريبة نحوي، وأنه يخفي شيئاً ما لا يود التصريح به، وكنت قد طلبت منه صورة كاملة عن ملف القضية ولكنه اعتذر وقال:

- مازالت أمامنا إجراءات قانونية وما زلت في حاجة له، مثل رفع القضية من بعض الدوائر وكف بحث عنك... المهم انتهت تلك الإجراءات، وعدت إليه من أجل أن يعطيني نسخة عن القضية، فسكت قليلاً ثم أجاب وهو يتصنع الضحك: ما زالت للقضية بقية...

_ بقية ماذا يا أستاذ؟

_ المرأة وطفلها...

_ حينئذ تأكدت بأن المحامي يخفي شيئاً ما عني، وربما له أهمية كبرى، ولم يتراءى لي بأننا ما زلنا في أول الطريق،

وإن اطلاعي على بعض المعلومات سيؤدي بي إلى تلك الجريمة النكراء.

في اليوم التالي ذهبت إلى المحكمة، وتقدمت بطلب الحصول على نسخة من القضية، وبالذات أسباب البراءة، وفعلاً حصلت على نسخة كاملة، وكنت أنوي أن أقرأ ما فيها فور وصولي إلى البيت أمام زوجتي، لأثبت لها براءتي بصورة قطعية، ولو أنها لم تظهر لي أبداً أي شكوك بي، ولم تقاطعني أثناء حبسي، بل كانت تزورني محملة بأطيب الطعام وتحضر لي ألذها، كما تأخذ لي ثيابي وتغسلها و تعيدها لي.

أثناء طريق عودتي عرجت على أحد المقاهي، ووضعت الملف أمامي، وطلبت فنجان قهوة.

أخذت أتصفح الملف، فوقع نظري على جملة في إحدى الأوراق توصي ببراءتي لسبب غريب جداً لم أكن اتوقعه، لأنني - وكما يقول التقرير- غير قادر على الإنجاب، بل من المستحيل عليّ إنجاب ذرية لخلو السائل المنوي من الحيوانات المنوية قطعاً...

طبعاً فوجئت، ولم أصدق... عندي ولدان من زوجتي أحدهما متوفى، وبعد تفكير شديد عزوت ذلك إلى خدعة

ذكية من المحامي كي يثبت براءتي، ولكن قلت: وما مصلحته بالتزوير والخداع؟! فهو محام مشهور ومعروف بنقاء ضميره.

كان نظري يجول في الأبنية المقابلة للمقهى دون تحديد، وبرقت أمامي يافطة كتب عليها مخبر للتحاليل الطبية.. على الفور دخلت، وكان الوقت ظهراً وقد انتهت فترة أخذ العينات اليوم، وبإصرار مني وحيث أن هذا التحليل يجرى في أي وقت، ولا علاقة له بتناول الطعام، وافق المخبري على إجرائه، فأجريت التحاليل الخاصة بهذا الأمر، وطلبت نتيجة فورية... ليس العدد أو نسبة الحي والميت، إنما سلبي أم إيجابي؟

لم يطل الوقت كثيراً حتى قال المخبري:

- للأسف لا توجد إطلاقاً حيوانات لا ميتة ولا حية...

وأكمل كلامه يعزيني:

- إنها إرادة الله...

خرجت مسرعاً وقد جن جنوني... ركبت سيارة أجرة، وانطلقت أحث السائق على السرعة. وما أن اقتربنا من البيت حتى طلبت من سيارة الأجرة أن تنتظرني أمام البيت...

وللأسف رأيت شاباً يتلفت يميناً ويساراً، ثم يفتح الباب ويدخل دون أن يمد يده بمفتاح. على الفور دخلت المنزل بسرعة، لم أكن بحاجة إلى مفتاح، ففور نزولي من السيارة جريت بأقصى سرعتي، ورميت ثقلي بأكمله على الباب... لم يحتمل الباب الصدمة فانفتح بعنف على مصراعيه، ويا لهول ما رأيت!

رأيت الشاب يقف مع حماتي وهي تضحك له، ويبدأ بخلع ثيابه!

كان باب الصالون مفتوحاً وبندقية الصيد لا تزال معلقة على الجدار، وبسرعة البرق تناولتها، وتأكدت بأنها كما تركتها محشوة قبل أشهر، فقد كنت أخرج للصيد يومياً بعد عودتي من العمل، وكانت الجريمة الكبرى ساعتئذ... أطلقت النار على حماتي ثم على زوجتي التي خرجت مسرعة على صوت خلع الباب...

وشاهدت الرضيعة التي كانت تحبو نحو جدتها، فلم أحتمل رؤيتها، ولم تخطر في بالي براءتها من كل ذنوب الدنيا، وأنْ لا علم لها بما يدور حولها، فأطلقت النار عليها،

ووضعت ماسورة بندقيتي على عنق الشاب الذي تعثر بجثة حماتي وسقط مرعوباً فوقها، وقلت له:

- إن أصدقتني القول لن أقتلك، ولكن أعطني هويتك.
أخذتها منه وطلبت منه أن يخبرني بسرعة عن كل ما يعرفه بسرعة، وعن سبب دخوله المنزل حقيقة، ولم أكن بحاجة لمن يؤكد لي أن حماتي عاهرة، وأن ابنتها مثلها وأن الطفلة ابنة زنا، فنتيجة التحاليل أكدت كل شيء بأنني لا يمكن أن أنجب ولا حتى بالعلاج.
قال الشاب: هذه العجوز هي من تؤمن زبائن تعرفهم لابنتها مقابل مال تأخذه هي وسيرتها معروفة في الحي، لم أدفع شيئاً للصبية، بل هي التي رغبتني، وهي التي تقاضت النقود وهكذا كان.
- هيا تعال معي كما أنت، وقف الشاب يرتجف خوفاً من القتل. كيف لا وفوهة البندقية على عنقه؟! وما زالت حارة تكوي جلده... لم تخطر بباله الفضيحة التي ستلحق به إلا عندما أصبح في الشارع شبه عار...
كانت السيارة تقف في مكانها، ونزل منها السائق محاولاً قرع الباب المخلوع عندما أقلقه التأخير، وعلى الفور أمره سعيد وهو يلوح بالبندقية بأن يذهب بهما إلى المخفر فوراً...

كان أبو أحمد يتابع رواية سعيد باهتمام شديد، ووجهه يتقلب بين الغضب والدهشة، وعندما سمع تلك الغرائب، رد عليه وهو يبتلع ريقه غضباً على الجناة وشفقة عليه:

- يا إلهي ما الذي تقوله؟ هل هذا معقول؟! إنها قصة رهيبة يا صديقي... أعانك الله...

وكانا قد وصلا إلى بيت أبي أحمد في القرية تتبعهم سيارة النقل...

- سأكمل لك الحديث في المرة القادمة.

- بل غداً نجلس كعادتنا في المقهى.

- إن شاء الله.

*****

عدالة السماء
الفصل الثامن

إتيكيت

خلال أقل من ثلاثة أيام انتقلت أسرة إبراهيم إلى هذه المدينة الصغيرة.

حتماً كان الدور الأول في نجاح تلك الفرص إلى حظ السيد أبي أحمد المتميز به في الفترة الأخيرة، والدور الأهم في تلك التطورات إلى الزوجة التي كانت تبحث عن استقلالية وحياة مستقرة، وذلك حسب جودة تفكيرها ورغبتها الشديدة في بناء حياة مستقلة لأسرتها، والفضل المشكور للسيد سعيد الذي سخر نفسه وسيارته وماله في تعزيز تلك التطورات المهمة من حياة أسرة أبي أحمد ومساعدتهم حين قدم لهم الحلول الناجحة دون مقابل، علماً أن صداقة الرجلين لم تكن قديمة جداً، فهي لم تتعد تعارفهما في الغربة فترةً قضياها معاء عاد بعدها (إبراهيم) أبو أحمد اليوم، ليرعى أهله... أما سعيد فكان مسقط رأسه قرية من محافظة أخرى، ولكن ظروفه الاجتماعية القاسية جعلته يقطن قرية لا تبعد عن قرية أبي أحمد سوى بضع كيلومترات فقط، وقد علمنا السبب

من خلال روايته لما سببت له من المشاكل قضية تسلط من إحدى الفتيات، عند محاولتها إلصاق تهمة أخلاقية به، جُرَّ إليها من خلال عمله في بداية حياته على سيارة أجرة، إلا أن المحكمة برأته تماماً، وخرج من القضية كالشعرة من العجين... سافر بعدها إلى بلاد الغربة، ووفق في عمله، وفتح الله له باباً واسعاً للرزق، وعندما عاد من تلك الغربة زار محاميه السابق حيث دفعه الفضول لمعرفة سبب براءته الحاسمة والدلائل التي أدت لتلك البراءة، فقدم لنا صورة دقيقة جداً لتلك القضية من خلال حديثه مع السيد أبي أحمد في الفصل السابق.

وكان سعيد قد اشترى بيتاً جميلاً في إحدى المدن الرئيسية، ولكن الأحداث التي

مرت به جعلته يبحث عن مكان يلجأ إليه ويبتعد عن مسرح الجريمة التي رواها للسيد أبي أحمد، ريثما تنتهي قضيته ويقضي الله بأمره فيها. لذلك أخذ يؤنس وحدته ويسلي نفسه بعمله على سيارته الخاصة، وكانت هذه إحدى الوسائل الناجحة، كما كان يقول، وإن كان ليس بحاجة للمال أو العمل إطلاقاً، ووجد في هذه المهنة تسلية له ريثما يقدم للمحاكمة بعد أن سمح له القاضي بالخروج

بكفالة مالية ضخمة، فقضيته كانت انتقاماً لعرضه كما تراءى له، ودفاعاً عن شرفه، ووصفت تلك القضية بأنها بالجرم المشهود.

وأكد ذلك اعتراف الشاب الذي قبض عليه متلبساً، وما سارت القضية إليه من اتجاهات متشعبة، وما وراءها من ملابسات تأذى بها شخصياً وتأذت معه كرامته، وأمسك بالقضية أحد كبار المحامين في البلد، وهو محاميه الأول الذي تولى الدفاع عنه في قضيته الأولى، وأثبت للمحكمة براءته التامة منها...

كان يحضر جميع الجلسات مع محاميه، ويسأله في كل مرة عما سيؤول إليه الحكم، فقال له:

- لقد أخبرتك سابقاً وأعيد كما في كل مرة، إن الأحكام في مثل قضيتك هذه تتراوح مدة الحكم فيها بحسب قناعة هيئة المحكمة وتوصيفها، فإن ثبت لهيئة المحكمة أنها جريمة قتل مع سبق الإصرار فحكمها حتماً الإعدام، أما غير ذلك فهناك عقوبات مخففة، ربما تصل إلى عدة سنوات، في أقصى حالاتها لن تزيد عن عدد أصابع اليدين وربما أقل، والله أعلم حسب ما يراه القضاء... لكن في القضايا عامة تظهر أحياناً تطورات مخيفة ربما لا تستفيد

منها، بل قد تكون وبالاً عليك... وهنا ما يخيف أنه بعد قتلك لزوجتك كيف ستنظر المحكمة لقتل حماتك، وهل بينكما عداوات مسبقة؟ ثم الطفلة... لماذا تعمدت التخلص منها وهي لاذنب لها في شيء؟! المهم ننتظر نتيجة إجراءات المحاكمة التي قد تطول سنوات، وعليك أن تحمد ربك كثيراً لأنك طليق الآن، وأن المحكمة قبلت الكفالة المالية الكبيرة وأنت الآن خارج السجن، وربما في الجلسة المقبلة تطلب المحكمة عودتك للسجن وذلك حسب رأي القاضي. كما أرجو الانتباه إلى عدم مغادرتك المنطقة إطلاقاً، وإلا سقطت الكفالة وألقي القبض عليك.

****

عدالة السماء
الفصل التاسع

مفاجآت

نعود الآن إلى بيت أبي أحمد لنرى مدى سعادتهم بسكنهم الجديد.

بدأت حياة الاستقرار تأخذ مجالها ومجراها، وبدأت الأسرة تتناسى حياة الريف.

وبقي الحب يغمر الزوجين من جديد، وأخذت كلمات الحب تتردد في أفواههم بعد تغير حالهم، وتوجهت الأنظار إلى مستقبل الأولاد، وأصبح من أولوياتهم.

اعتاد أبو أحمد على عمله الجديد في البناء والخشب والأسمنت، بعد أن ترك أعمال الزرع والضرع، خاصة وأنه سبق وأن عمل بتلك المهنة أثناء غربته التي لم تدم. افتقد أبو أحمد صديقه وشُغل فكره به بسبب غيبته، أليس هو صاحب الفضل عليه، هو من أسكنه في بيت، وهو أول من كان سبباً في توطينه فيه... مرت على تلك الأحداث مدة طويلة جداً لم يترك عنواناً له، أو رقم هاتف، كي يتصل به فقد ترك الأمر للمصادفة، لكن عمله لا يمكن أن يسمح له بالغياب للبحث عنه!

تمر بعدها السنين بطيئة السير سريعة الزوال، ومن خلال مهنة أبي أحمد في أعمال البناء، تمكن من إضافة غرفة في كل جانب من جانبي البيت، ثم أضاف إلى غرفة نومه، غرفة أطفاله القديمة بحيث توسعت كثيراً وأصبحت غرفة واحدة.

مر الزمن وكبر الأولاد، وأصبحت المدنية أساس الحياة عند كافة أفراد الأسرة.

تحسن حالهم، وبقيت الحسرة في قلب أبي أحمد بعد وفاة المرحومة أمه، وبقاء والده في القرية مع زوجة أبيه زينب، والتي كانت هي سبباً في رحيلهم عن القرية...

كم كان يتمنى أن ينقل والده إلى هنا إلى المدينة، ولكن والده كان يرفض هذا العرض دائماً، ويقول:

- هنا ولدت وهنا سأموت.

وجاءت ظروف زوجته الصحية (وردة حياته)، حالتها التي لم تعد تسمح لها بالبقاء قوية عندما كانت في عز شبابها، لقد داهمتها جميع أمراض الحضارة من سكري وضغط ونقص تروية والتهاب أعصاب، حتى أصبحت العصا رفيقتها في كل مكان، عدا ماكانت تحمل من كره متبادل لحماتها تستعيده في ذاكرتها فيزيد في علتها

ويحرق في قلبها أما الأب المسكين والد إبراهيم أبوأحمد فقد هرم وهدته الشيخوخة، ولكنه ما زال يحمل في جسده بعض القوة، ويرفض قطعاً ترك بيته وأرضه ليعيش عالة على ولده.

جلست أم أحمد تحت عرائش العنب داخل الحديقة، تفكر في ما وصلت إليها حال الأسرة اليوم وحالتها الصحية التي تتدهور يوماً بعد يوم.

ومع ماحمل النسيم تلك اللحظة مع هباته عطر الورد والرياحين التي جعلتها أم أحمد في حديقتها أشبه بجنة أرضية.

لم تترك نوعاً من الأشجار المثمرة إلا وزرعت فيها منها وها هي عناقيد العنب تتدلى من العرائش فوقها، وهاهي الثمار تتدلى من الأشجار كالمصابيح الملونة!

لم يكن بصر أم أحمد ضعيفاً حتى لا ترى ما حولها، ولم تكن يدها قصيرة حتى لا تقطف منها، ولكنها ترى بعينيها وقد صدت نفسها عن كل ماتراه من طيب ولذيذ.

بدأت تحادث نفسها:

- أولادي في سن الزواج، وأنا في حالة صحية يرثى لها.

يجب أن أزوجهم اليوم قبل الغد، يجب أن أرى أحفاداً لي،

أليس من حقهم علي بعد شقاء العمر أن أفرح بهم ولهم؟
نعم... عندما يعود أبو أحمد في المساء سأناقش الأمر معه... أعتقد بأنه لن يرفض، وما العائق؟ السكن موجود والعمل مؤمن، نعم...دخلهما مازال ضعيفاً، ولكن تكاليف الأعراس نستطيع أن نتحملها نحن، وما حاجتنا للنقود بعد هذا العمر؟! لقد اقترب قطار العمر من محطته الأخيرة، وكان قرار والديهما أن يبحث كل شاب منهما عن عروس من أية قرية من ريفهم.

تعرف أحمد على فتاة اسمها هدى تدرس في مدرسة للتمريض، من قرية مجاورة جميلة وهادئة، هكذا وصفتها له خالاته.

عاشت أسرة أبو أحمد في تلك المدينة عيشة هادئة أقرب ما نصف حياتهم بحياة الأسر الموسرة.

المدينة متواضعة وكل شيء متوفر فيها، ومن السهل الحصول عليه... الخبز والحليب، واللحم... فلاانتظار لمواسم... ولا لفصل معين... البقالة مزرعة بأكملها يصب فيها نتاج الأرياف...

تدور أحاديثهم في شرفات البيت، لاعلى مصطبة خارج الدار... هنا الكل يرى الآخر، الوجوه متفائلة تسطع عليها

أنوار الكهرباء، ولا يشحبها ضوء القمركما في القرية، تظللهم أسقف أسمنتية، لا تدفعهم للهرب سحابة ممازحة تفرغ بعض حمولتها في ليلة صيف حارة ثم تفر هاربة، ترفرف فوقهم حمامات الود والحب، وتشنف آذانهم أغان تخرج من صندوق اسمه المذياع، لا صوت راكب دابة يشدو بما تتحفه حنجرته، فتغضب دابته وتؤنبه بنهيق، أو ثغاء عنزة مصابة تقاسمه ركوب دابته... تأتيهم أجرة أعمالهم على الفور، وليس بعد طول انتظار لبيدر سرق أو احترق طالباً العوض من ربه في العام القادم، ومايرسل له الجيران من هبة.

لكن السعادة مثل سحابة أخرى تمطر وتجف وتطارد أخواتها ثم تختفي دون موعد.

بدأت المشاكل عندما سقطت الأم فجأة، وأصيبت ببعض الكسور التي لا يمكن أن تلحمها جبيرة طبيب لعجوز هدها السكري وحنت هيكلها هشاشة العظام....

هكذا يقول العامة:

(كسر الكبير يعلّ بصاحبه حتى يجره إلى القبر).

تغير الحال في بيت أبي أحمد... الكل مهتم بها يحاول مساعدتها، ولكن للأسف لم ينفع بعلاجها طبيب، ولا

كيّ دجال بحديدة حمراء شفاها، ولا لسع نحل من عطار أفادها، ولا قراءات شيخ تصنّع التقى جبرت عظامها.
مرض الأم والتراجع المستمر لصحتها بسرعة غير أحوال الأسرة، فتفككت دفة القيادة، وتحولت السفينة المتوازنة إلى هيكل خشبي تدفع به الأمواج كيفما تشاء، وأخيراً ماتت أم أحمد... ماتت صانعة السعادة...
تغير الحال ومال النور إلى الظلمة.
جاهد أولاده لتزويجه من امرأة أخرى، وكان الرد من أبي أحمد حاسماً:
- لا، لا، لا أريد أن أخوض تجربة أبي... ولا أن آتي لكم بخالة تشتتكم وترحلكم عني كما رحلنا جدكم من قبل.
قالوا له:
- يا والدي... نحن كبار ولا ننساق بتيارات الكره والبغض...سامحناها نحن والأمرعفى عليه الزمن ونسيناه
تبسم أبو أحمد:
- وهل كانت زينب زوجة أبي توجه لومها لي؟! كانت تحاربني بألعابكم البريئة...
- يا والدي... أنت أعلم بأدب زوجتينا وحسن تعاملهما.

- هل نسيتم اللكز والنهر وقرص آذانكم على أتفه سبب؟

أجاب أحمد:

- نعم أنا أذكر ذلك... هذا ما كانت تفعله معي حتى دون سبب! المهم أن تراني خالتي لتجد حجة لها بأذيتي وتحميلي أخطاء لم أقترفها، وربما لم أسمع بها أصلاً... إنها لم تكن تحبني أبداً...

رد عليهم والدهم:

النهاية لا وألف لا... لن أتزوج عبدة بعد ملكة هذا آخر قول لكم عندي

كان أبو أحمد يتذكر زوجته في كل لحظة ويدعو لها بالرحمة والغفران.

وعندما يخلو إلى نفسه يقول:

- رحمة الله عليك يا أم أحمد...

ثم يجهش بالبكاء والنحيب، وهي المرة الأولى التي يبكي فيها الصرح!

ويحادث نفسه:

لحسن حظك يا أم أحمد أنك حققت حلمك، ومناكِ كم سمعتك تتمنين تزويج ولديك قبل موتك، ويعزي نفسه بأن الله قدر لها قبل أن تموت أن ترى أحفاداً لها، فقد

رزق كل من ولديهاأحمد وحامد بطفل، فرأت حفيديها وداعبتهما وحضنتهما ولكن... عندما زاد المجهود على أم أحمد وغلب عليها الواجب الإنساني والتعب الجسدي، خاصة حين أصبحت ملزمة بمساعدة زوجتي ولديها على أطفالهما، وتدريبهما على بعض مهام البيت، كالطبخ وواجبات المنزل التقليدية.

يفكر أبو أحمد كيف أن زوجته لم تكن تشكو من انهيار جسدها في تلك الفترة، لذلك كانت تتدهور صحتها دون انتباهه.

زاد من أذيتها عدم اهتمامها بنفسها، فكانت تعمل كآلة لايعرف علتهاإلا حين تتوقف. فلطالما كانت تمرض وتعمل... تتألم وتضحك، لا يشعر بأمرها أحد، أخيراً بدأت تظهر عليها أعراض الضعف والهزال والوهن، وأفلت الأمر من يدها وأصبح في يد القدر، وبدأت أيضاً رحلة علاج طويلة، لم يقصر فيها زوجها ولا أولادها أحمد وحامد، ولكن المكتوب سيقرأ، ومابين السطور تفضحه الوقائع ولكل إنسان نهاية. وكما قلنا قبل قليل توفيت أم أحمد... وذهبت إلى جوار ربها راضية مرضية، وتركت أبا

أحمد لقدره، فلم يحتمل الصدمة التي كانت أعنف من قدرته على تحمل خسارة رفيقة عمره.

تكررت المواقف المؤلمة في حياة أبي أحمد بوفاة زوجته الآن ووالده أيضاً في العام الماضي، ووقبلهم فقدانه لصديقه سعيد الذي انقطعت أخباره عنه نهائياً، فكان يشك في هروبه إلى خارج البلاد، وهو أمر لم يؤكده أحد له...

تكررت العروض على أبي أحمد من ولديه لتزويجه بامرأة تعتني به وتساعده على قضاء حاجاته، ولربما تخفف عن زوجتيهما الوقت والجهد... كانا يعرضان الأمر عليه دائماً ويومياً، والقصد مصلحته أولاً، وبالوقت نفسه مصلحتهم أكبر بالتخفيف عن زوجتيهما ورديتهما، بالعناية بإطعامه وغسيل ثيابه وتنظيف غرفته الكبيرة، لكنه كان يرفض الفكرة كلما فتحوا له هذا الحديث، ويبرر لهم موقفه بأن أجله اقترب وأنه يحس بأنه لاحقٌ بزوجته قريباً... أمهم، وأن والده يدعوه إليه إن لم يكن اليوم فسيكون غداً... ولكن الأمور لا تسير أبداً برغبة الأفراد، إنما هنا سارت الرياح بما لا تشتهي سفنه...

الرجل القوي الذي ناضل وكافح لإسعاد أسرته، وكان صرحاً لبيته غدا لقمة سائغة للْهُمَّ والغم...

خرج أبو أحمد إلى الحديقة في إحدى الليالي، ورفع يديه إلى السماء مبتهلاً.

لم ينتبه إلى أن ولده أحمد يهتم بسقاية بعض الأحواض، فسمعه يقول:

- لمن أشكو ياربي؟ كان اسمي المحظوظ، وأصبحت اليوم المرفوض، وما أن سمعه ولده

حتى هجم عليه وطوقه بذراعيه وأخذ يقبل رأسه، وهو يقول: اتق الله بنا يا أبي... من رفضك منا يا والدي؟؟!!

أنت صاحب البيت ونحن خدمك تأمر فتطاع...

تفاجأ أبو أحمد بصوته وقال:

- وهل سمعتني أوجه كلامي لمخلوق؟ أنا أناجي ربي وألوذ به من حالتي التي وصلت إليها.

وبعد صمت طال قال:

- اسمع يا أحمد خذني غداً إلى القرية، سأقيم عدة أيام هناك...

- ماذا تقول يا والدي!! وهل قصر أحد منا بحقك؟!

- لا يا ولدي، ولكنني أشعر بدنو أجلي، وأتمنى أن أموت في بيت أمي وأبي...
- ما هذه الأوهام يا والدي؟! أطال الله بعمرك.
- بل ادعو لي بأن يعجل بأخذ أمانته، فما نفع الحياة دون أمك، ولم تعد بي من فائدة ترجى...
- توكل على الله يا والدي... فأنت رجل مؤمن...
- لا إله إلا الله محمد رسول الله...وهل كفرت؟ المهم غداً خذوني إلى موقف سيارات القرية، وأنا أعرف طريقي...
- توكل على الله... غداً ستكون هناك بإذن الله...

أصر على العودة إلى القرية، وإن كان حتى الآن لم يفقد احترام ولديه له؛ لكنه فقد أمله أمام قدره، فذهب برفقة ولده أحمد إلى القرية حيث نظف له غرفة جده أبي إبراهيم، ثم جهز له ما يكفيه من الطعام لعدة أيام، وعاد إلى (المركز) مدينته ليتابع عمله وشؤون أسرته.

جلس أبو أحمد على المصطبة نفسها التي ماتت أمه عليها قبل حوالي ربع قرن، يستند على جدار غرفة والده الذي انتقل منها إلى رحمة ربه.

أخذه البكاء وهو يستعيد ذكرياته، وخطرت في باله أيضاً زوجة أبيه التي تسببت برحيله من القرية، والتي أيضاً

رحلت من البيت مع ابنتها بعد وفاة زوجها، وانتقلت إلى قرية أهلها.

طالت إقامة أبي أحمد عدة أيام، كان ولداه خلالها يتنسمان أخباره عن طريق هاتف جيرانه. وبينما كان أحمد في عمله مر شاب من أمامه يعرفه وهو من سكان قريته فناداه، ولكن الشاب زوى فمه سخرية، وتابع سيره ولم يرد، ويبدو أن الشاب لم يستسغ الحركة التي قام بها، فعاد وسلم على أحمد بفتور شديد...

سأله أحمد:

- ما بالك تتعامل معي بهذا الفتور؟!

- أين والدك أولاً يا أحمد؟؟

- عندكم في القرية...

- وبالوالدين أحساناً، أليس كذلك؟!

- صدق الله العظيم.

تفاجأ من هذا الجواب وظن بأن مكروهاً ما حدث لوالده:

_ أخبرني... إلامَ ترمي؟!

- ألا تدري؟! هل معقول هذا؟!

- قل بصراحة... ما الأمر؟!

- اسمع يا إبراهيم... لبعض الناس ألسن حادة، ولآخرين منهم آذان صاغية، جميع أهل القرية يقولون أنكم تخلصتم من والدكم برميه وحيداً في القرية، ثم تخليتم عنه...

- هو من فرض علينا نقله إلى هناك، بحجة ذكرياته مع أهله وطفولته...

- لا أدري... ولكن يبدو أنه لم يجد معاملة حسنة عندكم... المهم أعيدوه إليكم ودعوه يعيش بينكم وكلام الناس لا يرحم.

تأثر أحمد بهذه الكلمات كثيراً، وعلى الفور اعتذر من عمله، وانطلق نحو قريته...

وجد الباب الخارجي مفتوحاً، وما أن دخل إلى صحن الدار يبحث بناظريه عن والده

حتى استقر نظره على المكان الذي تركه فيه، استغرب الأمر، تمعن به جيداً، ثم تلمس صدره خشية أن يكون ميتاً، ولكنه حمد الله وهو يقول:

- الحمد لله... إنه يتنفس. أيقظه بهدوء، إلا أنه لم يكد يعرفه، وإن كان الزمن الذي تركه فيه لا يزيد عن أسبوع

واحد، فقد طال شعر ذقنه وشاربيه، وبياض الشعر غطى وجهه.

ركض إليه يقبل يديه ويعتذر منه:

_ تأخرت عليك يا والدي... أليس كذلك؟

- لماذا تعتذر؟ عندي الجلوس ساعة هنا أفضل من قصور الدنيا...

وأشار بيده إلى أماكن متعددة ثم قال:

- هناك كنت أضعكم في حجري أداعبكم... وهناك كان المرحوم والدي يداعبني، وهنا ماتت أمك، وفي تلك الغرفة ولدت أنت وأخوك...

- يا والدي جهز نفسك لنعود إلى بيتك في المركز...

- ليتك تتركني هنا يا أحمد... مللت المدينة وصخبها لقد توسعت كثيراً حولكم، ووصلت إلينا بعد أن كنت أشعر سابقاً أنني أعيش هناك حياة أقرب إلى حياة الريف...

- المهم يا والدي... ألسن الناس لا ترحم...

- لا عليك الناس تتكلم وترى الظاهر، وأنا أخبرت الجميع برغبتي بالبقاء هنا في بيت والدي وجدي وبلدي.

- ارحمنا يا والدي من ألسنتهم، فقد طالت على أولادك كثيراً... ولك عليّ عهد أن نمضي هنا كل أيام العطل معاً.

- أمري لله يا ولدي سأجهز نفسي...
- أسرع إذاً، سيارة الأجرة تنتظرنا في الخارج...

لم يعطِ القدر إبراهيم ما كان يأمل منه... أن يرحمه، وخيب أمله عندما لم يعجل عليه بالموت ليلحق بزوجته وأهله كما كان يتمنى!

ما زالت بنيته قوية حتى الآن، لا يشكو من مرض ولا علة... فهو لم يتجاوز العقد السادس من عمره كثيراً، ولكن بعد مرور فترة على وفاة زوجته أصبح يسرح بفكره ويبكي كلما تذكرها.

وزاد من همومه إن الطعام المقدم له لا يتلاءم مع ما يشتهيه، ولا يستطيع أن يفرض على زوجتي ولديه نوعية الأكل التي يحب، بل كان ملزماً أن يأكل ما يقدم إليه، وكان أحياناً يتخلص من الطعام الذي لا يرغب فيه بشتى الوسائل، وينتظر الوجبة القادمة علّها تعجبه... لذلك لم يعد للحياة من طعم، خاصة بعد فقد أنيسته، مما زاد من تفكيره وأصبح يجلس وحيداً، يسرح مع خيال زوجته في غرفة نومهما، يقلق لياليه ويتألم في وحدته، لذلك بدأت تظهر ملامح شيخوخة مبكرة على وجهه.

سرح بفكره تلك اللحظة كعادته يومياً، فلا شغل ولا شاغل له إلا ذكرياته منذ تعرف على وردة، تذكر تلك الليلة التي انتقلت إلى جوار ربها، عندما أيقظه شخير لم يعتده منها من قبل. يتذكر الآن كيف قفز من فراشه، حين لم يكد ينير المصباح ويتوجه نحوها حتى انطفأ مصباحها وذهبت إلى رحاب الله،

ومع هدوئه المعتاد إلا أنه لحظتها سقط على ركبتيه يندبها بأحر العبارات.

****

عدالة السماء
الفصل العاشر

حسرات

كما قلنا سابقاً:
زاد عدد الأولاد لكل من الأخوين أحمد وحامد... الغرفة التي كانت تتسع للأسرة مع ولد واحد لم تعد تتسع لأسرة مؤلفة من خمسة أفراد، هكذا أصبح عدد أفراد أسرة حامد، وكذلك أحمد وإن كان عددهم أقل.
لذلك كان لا بد من حل جذري، فقد ضاقت بهم الغرفة الوحيدة التي بناها له والده قبل أن يتزوج، كما بنى لأخيه أحمد غرفة مماثلة، لذلك كان لا بد لكل أسرة منهما من غرفة أخرى.
فكان كلما انفرد حامد بزوجته كان حديثهما يدور حول ضيق السكن، وكانت زوجته تظهر غضبها ونفاذ صبرها، وأحياناً يحتد النقاش بينهما حتى يصل إلى مرحلة القطيعة، فتهدده بالرحيل من بيته والعودة إلى بيت أهلها الواسع الرحب على حد قولها، فيخرج أحياناً إلى الشرفة غاضباً، لكنه يعود بعد قليلٍ ليترضاها ويعدها بما ليس له قدرة عليه، بينما هدى زوجة أخيه أحمد راضية بالأمر

الواقع، وإن كان ذلك على مضض، فهي متعلمة إلى حد ما، وكانت أكثر حناناً على عمها من زوجة حامد، تسأل عنه دائماً وترثي لحاله وتغسل له ثيابه وتنظف له غرفته وترتبها أثناء ورديتها، بينما زوجة حامد كانت قاسية عليه تعمل أثناء ورديتها عنده، لكن لا تترك كلمة تغيضه إلا وتقولها، وعلى سبيل المثال:

- من لا يحس بالناس ليس من الناس...

والرجل صابر وساكت، لا يشكو كي لا يثير أي خلاف بينها وبين زوجها...

نادى حامد أخاه أحمد ليقترح عليه الفكرة التي خطرت في باله... جلس الأخوان كي يقررا كيف سيتصرفان لحل تلك المشكلة، ويبحثا عن الحل المناسب.

بدأ حامد بالحديث:

- ألا ترى يا أحمد الضيق الذي نحن فيه؟

- عن أي ضيق تتكلم؟ حياتنا كلها دهاليز ضيقة.

- السكن الذي نحن فيه... أقسم لك الليلة الماضية ثلاث مرات تفاديت التعثر بأحد أولادي عندما قمت في الليل لأشرب، والسبب ضيق الغرفة...

- الحل ياحامد؟ هات ما عندك...

وببسمة مترددة وبكلمة نزلت عليه كالصاعقة:

- غرفة والدنا...

فعلاً صعقته المفاجأة!

- ماذا؟! هل تريدنا أن نطرد والدنا من بيته؟!

- لم أقل هذا يا أخي... ولكنني بعد التفكير وصلت إلى ثلاثة حلول، لا أرى فيها مايسيء له...

- هات اطرحها لنرى...

- أن يعود والدنا إلى القرية... أنت تعلم أن بيت العائلة شاغر الآن، ولا يوجد فيه من يعكر صفوه، والوالد يرغب، بل يتمنى أن يعود إليه، دائماً كان يعبر لي عن شوقه للقرية وجيرانه فيها، وأنت تعلم ذلك...

- هذا مستحيل. أنت رأيت بنفسك ما نالنا من أهل القرية من تجريح وتحقير عندما ذهب ليمضي بضغة أيام هناك، فكيف لو أرسلناه للسكنى فيها؟! هات الحل الثاني...

- أن أترك لك غرفتي، وأستأجر شقة قريبة في العمارة التي بنيت حديثاً أمامنا.

- هل تستطيع دفع أجرة الشقة؟ أنت لا تستطيع اليوم أن تصرف على بيتك كما يجب، فكيف ستدفع أجرة شقة؟ وهل توجه الكلام لي؟! فعملنا واحد وحالنا واحد!

- كلا... أنا من سيترك لك الغرفة، وتساعدني بنسبة بسيطة مقابل أن تأخذ غرفتي...

_ ثم لو فرضنا أن المستحيل وقع، ورضيت بعرضك، كيف سأنتقل من غرفة إلى أخرى وغرفة والدنا كبيرة تحجز بين غرفتينا؟! هات الاقتراح الثالث...

- نعم... الثالث أنت قلته، فغرفة والدنا كبيرة وهي بالأصل كانت غرفتين، والآن نعيدها كما كانت، ثم نقتسمها قالها وهو يضحك.

رد أخوه ساخراً:

- مسكين أنت يا أبي... يقتسمونك حياً!

- خذ الأمر جدياً يا أحمد...

رد أحمد غاضباً:

هناك ثلاثة أمور تمنعنا... أولها هذا بيته وشقاء عمره، والثاني صديقه الذي باعه البيت لا يعرف أحد مصيره، هل مات؟ هل هرب؟ هل هو في سجن؟ مع العلم أن الوالد سدد أقساط البيت كاملة، وما زال البيت باسمه. ثالثاً

المرأة التي كانت تسكن الغرفة هي أمي وأمك، وله فيها ذكريات طويلة تجمع والدنا وأمنا معاً...

صمت حامد قليلاً ثم انسحب، إلا أن أحمد ناداه:

- إلى أين؟ تعال نتدارس الأمر بجدية.

رد عليه وهو يتثائب:

- غداً... غداً... لدي عمل صباحاً سأنام باكراً الليلة.

كان النقاش يدور بهدوء بين الأخوين في البداية، لكن في النهاية فقد الحديث خصوصيته وسريته، وأصبحت أصواتهما تعلو وتسمع في جميع أرجاء المنزل.

وفي يوم تالٍ اجتمعا لمتابعة البحث عن حل لمشكلتهما، فعلت أصواتهما هذه المرة كثيراً، وكانا أمام نافذة غرفة والدهما المطلة على الشرفة! وتجاوز الحديث حدود الهدوء المعهود واحترام الكبير، وبدا كأن حامداً قد فقد أعصابه:

_ اسمع يا أخي، الليلة الماضية لولا ستر من الله لكنت دست في بطن ابني الصغير، ولكن الله قدر ولطف، اسمع خلاصة القول:

والدنا يحتل غرفة كبيرة، كما تعلم لا أحد منا اليوم غرفته تتسع لأسرته.!

_ وماذا تريدنا أن نفعل؟! هو والدنا وهذا بيته، ولا نستطيع أن نطلب منه أن يخلِي غرفته، حتى في القرية سيحتاج إلى من يساعده في الطبخ والتنظيف...

_ أنا لم أقل ذلك. ولكن نأخذ غرفته كما قلت لك سابقاً ونقتسمها فهي كبيرة. ونُصلح له المستودع بالشكل اللائق للسكن، فهذا يكفيه طالما هو وحده.

_ ولكن تلك غرفة نومه هو والمرحومة أمنا.

_ أنت لديك زوجة وأولاد، وأنا كذلك، وكل منا يحتاج إلى غرفة صغيرة إضافية.

_ لا أنكر ضيق السكن الذي نحن فيه!

_ حتى المستودع صغير ولا يحل مشكلة لنا، قد يستفيد منه أحدنا فقط. أليس كذلك؟ ومشكلته إنه يقع في طرف الحديقة ويبعد عن غرفنا كثيراً، ومن الصعب وضع الأولاد فيه، ثم من سيأخذه؟ أنا أم أنت؟ وكيف سيحل الآخر مشكلته؟

_ نعم صحيح... إن غرفة الوالد بين غرفتينا وكانت غرفتين في مضى، ادخل إليه وأخبره باتفاقنا...

- أنا لا أستطيع أن أكلمه، هيا أنت صاحب الفكرة. ادخل واسأله إن كان سيوافق.

_ وما المشكلة بالنسبة له، كالعادة طعامه سيصل إليه هناك ككل يوم. وستقوم إحدى نسائنا بتنظيف الغرفة دورياً...

_ كلا... أنا لن أكلمه بالأمر. لا أستطيع ولا حتى أجرؤ على ذلك.

لكنه سكت قليلاً، ثم قال:

_ أشك الآن بأنه يسمعنا، فالنافذة مفتوحة، وربما سمع حديثنا...

_ هيا اقرع الباب ولندخل.

كان هذا السبب الذي أدى لزيادة الخلافات بينهما، ثم أصبحت على أشدها، ولم يكن السبب على المادة، بقدر ما كانت على ضيق السكن، والحل موجود عند والدهما، الذي

سمع وفهم كل ما يريدان منه، لكنه تجاهل الأمر عند دخولهما وقال:

- ماذا تريدان يا أحمد، ويا حامد؟ أن أخرج من غرفتي؟ هيا أصلحا المستودع ريثما يقبض الله وديعته، وأنا سأساعدكما بيدي.

واستسلم لواقع فرض عليه...

غالبتهما الدموع وهما يرجوانه أن يسامحهما، ويبرران تصرفهما هذا بصعوبة ظروفهما المادية، التي لا تسمح ببناء حتى ولو قن للدجاج، وأن أعمالهما لا تكاد تكفي معيشة أسرتيهما.

فقال لهما متحسراً:

_ ليتكما تحلان مشكلتي بإرسالي إلى القرية، ولكما ما تشاءان.

أخيراً رُحِّل إبراهيم إلى المستودع سابقاً، فأصبح هو غرفة نومه الجديدة، وكانت المرحومة قد أصلحت سقفه بيدها، وكان أبو أحمد يساعدها، لذلك لم يأسف كثيراً على ترك الغرفة، وأخذ ينظر إلى الجدران ويستعيد ذكريات السنين التي أمضاها مع المرحومة زوجته، ويقول:

- هناك مكان أصابعها ما زالت مطبوعة على طينة الجدران.

ثم يمسح دموعه بيديه.

****

عدالة السماء
الفصل الحادي عشر

سقوط الأعراف

لم يطل الأمر على حالة الأب الصحية كثيراً في غرفته الجديدة.
مضت أشهر فقط، بعدها سقط أبو أحمد مريضاً، خاصة عندما وجد نفسه خارج دائرة الأسرة بسبب الرطوبة والبرد الشديد، أيضاً بعدما فقد الحب والاهتمام، وأصبحت زيارات أولاده متفاوتة، كما إنه فقد عبث أحفاده ولهوهم البريء بين يديه وبحضنه، فتحطمت معنوياته وقدرته على التحمل بعد عزله عن واقعه، وإبعاده عن ذكرياته القديمة.
ربما كانت تلك من بين الأسباب التي سببت بإصابته بجلطة دماغية أثّرت على
نصفه الأيمن، فأفقدته الحركة برجله اليمنى ويده، وأصبح لايستطيع السير، وبذلك صعب عليه الأكل وحده، وأصبح يحتاج مساعدة في قضاء حاجاته الشخصية، وبحاجة إلى راعٍ له في كل شيء، حتى الكلام أصبح ثقيلاً عليه وإن لم يفقد قدرته على الكلام نهائياً، والأهم أنه لم

يفقد وعيه، وبقيت لديه القدرة على التعبير عما يريد، ولم يتأثر تفكيره، بل بقي سليماً.

كل هذا لم يكن بحسبان ولديه، ولم يتصور أحدهما أن يصبح ذلك الرجل اللطيف القوي الإرادة طريح الفراش مستكيناً لمن يرأف به.

هنا تفجر الخلاف من جديد بين الأخوين حول مصير والدهما، وفي هذه الليلة تغلبت على حوارهما الحدة والنبرة القاسية والصراخ، وتبادل التهم بالمسببات التي أوصلت والدهما لهذه الحال المؤلمة، بدأ الحديث حامد:

- ما رأيك الآن؟ ما الذي سنفعله؟ قلت لك نأخذه إلى القرية.

- وهل كان في القرية بعيداً عن إرادة الله؟

- سبحان الله... منذ الصغر وصفك الوالد بالمتهور.

- لا تغير الموضوع. نحن الآن أمام موقف إنساني قبل أن يكون واجباً ربانياً... هذا والدنا...

- أنت تعلم بأن زوجتي لاتستطيع أن تقوم بخدمته، بل يستحيل عليها ذلك باستثناء أن ترسل له الطعام في ورديتها.

- أنا كما ترى أصبحت أعمل بنصف طاقتي، فأخدم والدي يوماً وأتابع عملي يوماً آخر...

_ وهل أنا مقصرٌ؟! الحالة نفسها تجمعنا... اليوم الذي تذهب فيه إلى العمل أجلس أنا بديلاً لك أعتني به.

- وما الحل إذاً برأيك؟

- لا أدري يا أخي والله.

- ننتظر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

أجاب بتهكم واضح:

- جدنا أبو إبراهيم عمَّر كثيراً، وكاد أن يبتلع القرن كاملاً، ووالدنا أيضاً كاد أن يصله،

الإنسان كالأشجار منها من يعمر ومنها من يموت بسرعة ونحن كما ترى...

قاطعه أخوه بسرعة:

- دعنا من السخرية، يجب البحث بجدية عن حل لعلنا نجد طريقة ما لمساعدته.

- تذكرت الآن أختنا سمية... هو والدها أيضاً.

- أتمنى أن تتكلم بوعي أكثر. أنت تعلم بأن لديها ستة أطفال، أصغرهم ما زال رضيعاً، وكبيرهم في الخامسة

عشرة من عمره، وزوجها أنت أدرى به، يخرج من علة ليقع في علة. لقد هدّه المرض.

- اسمع يا أخي... العناية بوالدنا يجب أن تأتي من بيتنا فقط.

- وهل تريد من زوجتي الغريبة عن العائلة أن تقوم بخدمته إلى الأبد؟ وأنت تعلم بعدم وجود أي صلة قرابة بينهما؟! والأمر ينسحب على زوجتك أيضاً، هاهما يقدمان كل ما تستطيعانه، ولكن إلى متى؟

_ وما الحل إذاً؟ الوالد يحتاج إلى رعاية تامة وإلى من يسنده ومن يساعده في دخول الحمام والاستحمام والأكل وكل متطلباته.

_ نعم لا شك في ذلك وهي حالة دائمة.

_ ماذا ترى الآن؟

_ نبحث له عن رجل يخدمه بأجره.

_ ماذا؟ وهل يجوز أن يتردد على منزلنا رجل؟!

- ولماذا يدخل منزلنا؟ سيزور الوالد في غرفته ويعتني به مرة في اليوم أو أكثر، حسب الحاجة.

- أين تعيش أنت يا أخي؟! وفي أي عالم؟ وهل عثرت على كنز دون علمي؟!

ومن أين لنا النقود ندفعها للرجل؟! إن مرتبي ومرتبك لا يكفيان لأجرة شخص يأتينا من الخارج، وكما ترى أصبحنا نعمل بنصف طاقتنا.

_ فعلاً لا يصلح، ومعك حق.

_ فكّر يا أخي بحلٍ غير هذا.

- تأتأ حامد قليلاً ولكنه ابتلع ريقه، ثم أطبق فمه وسكت

_ حتماً لديك فكرة. تفضل، وقل. هيا تكلم مهما كانت.

- سأقول وأنا خجلٌ مما أقول.

- اقترح، لا مشكلة المهم أن لا تفلت ألسنة الناس علينا.

وبتردد كبير قال:

- اسمع يا أحمد... نضعه في مأوىً للعجزة... لقد قدمنا أقصى ما نستطيعه، وليس لدينا أكثر منه نفعله.

_ ما الذي سيقوله الناس عنا حينئذ؟!

_ ليقولوا مايشاؤون. مشكلتنا ونبحث لها عن حلّ، وعندما لا يستطيع الأبناء المساعدة تتوقف الواجبات المفروضة، (ولايكلف الله نفساً إلا وسعها)، أليس كذلك؟

وكما ترى حالنا... حتى أولادنا ما زالوا أطفالاً يذهبون إلى مدارسهم، ولا يستطيعون تقديم أية مساعدة له أو العناية به.

- حسن... ألا توجد في هذه المدينة الصغيرة دار للعجزة فنتابعه بأنفسنا؟

- كلا. لا بد من نقله إلى العاصمة، وهي بعيدة.

-ومن سيقوم بتلك المهمة؟

- أحدنا أو كلانا.

لقد سألت الطبيب الذي يعالجه أكثر من مرة... إلا أنه حسم الأمر، وقضى فيه وقال:

- لا أمل يرجى، فمأوى العجزة مصيره، ولا يمكنه أن يستعيد الحركة أبداً، إلا بمعجزة من السماء. هذا رأي الطبيب حيث قال إنه من الممكن أن تنتقل الخثرة من مكانها إلى مكان آخر وتحدث له شللاً تاماً.

- يا إلهي. مصيبة لا سمح الله... وعندما شكوت للطبيب حالنا قال:

هناك أكثر من حل، أولها الملجأ وهو الحل الأمثل والأقل تكاليف، أو البقاء في البيت تحت رعاية مكثفة، أو نقله إلى مشفى خاص، ولكن هذا لا قدرة لكم على مصاريفه

وعندما سألته عن مشافي الدولة أو المشافي الخيرية، أجاب:

- تابعوا العناية به بأنفسكم، هناك لن يستحملوه عندهم أكثر من عدة أيام.

وبعد جلسة مغلقة الأبواب! مفضوحة الأصوات بين الأخوين قررا بالإجماع إنهاء الأمر، بإرساله إلى مأوى للعجزة بسيارة جارهم يوسف العاملة بين المركز والعاصمة.

واختلفا على من يرافقه منهما، لكن يوسف جارهما الرجل الشهم، عرض عليهما أن يحمله بسيارته بحجة أن ابنه يعمل في أحدى تلك المراكز، وأنه سيقوم بجميع الإجراءات المناسبة، ومن الممكن أن يفيده، وهو على استعداد للقيام بهذه المهمة طبعاً مقابل منفعة مادية، فأخذ منهم جميع الأوراق المتعلقة بأبي أحمد وحالته الصحية.

****

عدالة السماء
الفصل الثاني عشر

مصير مجهول

وهذا ما حصل، وقبيل فجر ذاك يوم أُرسل الأب إلى مصيره، فحملوه إلى سيارة جارهم التي انطلقت به تاركاً خلفه ذكريات عمره يبكيها، وتبكيه، على أمل أن يلحقا به، بعد أن يضعه في مكان أمين، إما ملجأ أو مشفى خيري، المهم أن يجد له برعاية ولده عناية ومأوى دائماً فيه.

لم تطل الرحلة كثيراً حتى وصلت السيارة إلى العاصمة بعيد الفجر بقليل، والناس تزدحم على الكورنيش تتنسم نسيم الصباح قرب رصيف البحر كعادتهم.

وقف السائق بجانب أحد الأرصفة، وبمساعدة أحد المارة أجلساه على مقعدٍ قرب محطة للحافلات، ثم تركه السائق وقال له:

- يا والدي... سأتركك هنا ساعة من الزمن تتنشق الهواء النقي، ريثما أصلح إحدى العجلات المثقوبة، ثم نذهب معاً إلى مقر عمل ولدي ليتدبر الأمر، لكن الآن الوقت ما زال مبكراً جداً. أعتقد بأنه لم يذهب إلى عمله بعد.

رد ساخراً والألم يقطع قلبه:
- لاتخف، لن أهرب...
غادره السائق يوسف واعداً إياه بالعودة بسرعة بعد أن تفتح تلك الأماكن أبوابها.
لم يجد أبو أحمد متنفساً له، سوى البكاء رفيقاً، وصديقاً متمنياً الموت في كل لحظة!
أخذ بالدعاء إلى ربه بأن يحقق له مطلبه فوراً، وأن ينقذه من محنته بالموت العاجل فلم يحمل قلبه سوى الغصة، والقهر، واليأس، تشبث بيده السليمة بطرف المقعد حتى لاينقلب، ولكن الضعف والمرض أفقداه الصمود، فبعد أكثر من نصف ساعة حاول تعديل وضعيته، لكن محاولاته باءت بالفشل، وفي النهاية خَارَ جهده المنهَك أصلاً، ثم هوى نحو الأرض. ولحسن حظه صادف في اللحظة نفسها مرورسيارة أجرة تحاول التوقف إلى جانب الرصيف، رأى سائقها المشهد، فقفز على الفور، والتقط الرجل وهو يقول:
- ما بك يا والدي؟ وماالذي أوصلك إلى هنا؟ في هذا الصباح مبكراً؟

شرح أبو أحمد القصة باختصار، وأخبره بأن السائق الذي كلف بإيصاله أحضره إلى هنا، وطلب منه أن يرتاح في هذا المكان على أن يعود إليه بعد أن يقضي حاجة ضرورية له، ثم يذهب بصحبته عندما تكون الدوائر الرسمية قد بدأت بالعمل، وتركه هنا على رصيف هذا الشاطئ يرتاح بالجلوس في الهواء، أفضل له من البقاء داخل السيارة.

وأضاف:

- تركني هنا على حد زعمه أتسلى برؤية الناس... ويبدو أن السائق، ربما قد حدث له مكروه ما أخّره، أو أنه لا يريد العودة.

سأله السائق:

- أتذهب معي يا والدي؟

ردّ ملهوفاً:

- نعم... ولا تنتظر.

تعاون سائق الأجرة مع أحد المارة من بين من تواجد تلك اللحظة، فأدخلاه إلى مقعد سيارته الأمامي، ثم ربط له حزام الأمان كي لا ينقلب مع حركات السيارة. أو أثناء التوقف المفاجئ. وخلال تلك اللحظات كان الفضوليون.

قد تكاثروا متسائلين عما يدور، وبدأت هرولة المارة نحو ذلك التجمع، وأخذ الناس يتساءلون عما يحدث.

رد أحدهم يقول بثقة:

- سيارة صدمت شخصاً ما...

ثم يلتقط آخر بعض أطراف الحديث، فيرد على متسائل آخر:

- سيارة مسرعة جنحت على الرصيف وصدمت رجلاً عجوزاً. وقام السائق بنقله إلى المستشفى.

يصل آخر مهرولاً كان قد رأى السيارة قد غادرت مسرعة. والتقط فور وصوله بعض كلمات الأسى من أحد الموجودين. ثم يسأل:

- وكيف تم الإختطاف؟

يرد آخر:

- وماذا يريدون من رجل كبير في السن؟

يرد غيره مهولاً في الأمر كخبير متمرس:

- ماذا يريدون؟؟ إن له كليتين وقرنيتين... ربما كان هؤلاء عصابة يتاجرون بالأعضاء البشرية.

ويتساءل آخر:

- هل التقط أحدكم أرقام السيارة؟

ثم يهمس شاب يحادث نفسه:

- أنا فعلت، ولكن (مالي ومالهم فقد يجرني الأمر الى مساءلة).

ثم يصمت ويدير ظهره ويرحل متلكئاً، ومتردداً.

هرع يوسف السائق الذي جاء بالرجل أحمد قبل ساعات إلى هنا، ووقف أمام المجموعة، التي بدأت تتفرق ببطء شديد، إلا أن المكان لم يخلُ تماماً من بعض المتطفلين يشكلون مجموعات صغيرة من شخصين أو أكثر يتناقشان بما حدث. أصغى يوسف بحيث لا يفوته حرف واحد، وأخذ يلتقط ما تهمس شفاههم من بعض التكهنات من أحاديث المتبقين. ولم يجرؤ على السؤال! لذلك أخذ يتسلل بين بعضهم. ويصغي إلى أحاديثهم لعله يستشف مايفيده. في النهاية استطاع أن يكون فكرة بسيطة ربما تكون أقرب إلى الصواب، لما حدث للسيد أبي أحمد!

أخيراً صعد شاب على المقعد الذي كان يجلس عليه قبل قليل المسكين. ثم أخذ يصيح بالناس كي يتفرقوا موضحاً الأمر.

- أيها الناس... اذهبوا إلى أعمالكم... لا يوجد حادث سيرٍ ولاعملية اختطاف لأحد كما تتهامسون.

كل ما في الأمر سائق أجرة وضع أباه المريض على هذا المقعد في الفجر هنا، ليتنشق هواء الصباح النقي.

وأشار إلى المقعد الذي يقف عليه:

- ثم عاد إليه وأخذه معه. لقد ساعدته بنفسي على وضعه في سيارته.

ومع النظرات المتسائلة والوشوشات الهامسة بين مصدقٍ ومكذبٍ بدأ البعض يغادر والبعض الآخر يتسكع على الرصيف، وكأن الأمر لم ينته بعد. ومنهم من يتمتم متهماً الشاب في نفسه، ويقول دون أن يسمعه أحد:

- ربما أنت شريك مع تلك العصابة...

قال الشاب هذا، ثم غادر المكان ببطء شديد وقد أقنع نفسه بكلمة (وأنا مالي).

على الفور لحق به السائق يوسف الذي عرفنا أنه أُوكِلَ إليه جلب أبي أحمد إلى هذه المدينة، وبخطوات عجولة لحق يوسف بالرجل واستوقفه متسائلاً:

_ أكنت يا أخي منذ البداية هنا؟

- نعم... ولكن ما صلتك به؟

قال وهو مضطر إلى الكذب، وقد خشي أن يوقع نفسه في ورطة جديدة، ومع تصنعه بالهدوء لم يتمالك نفسه من الاضطراب:

- السائق هو ولدي، وقد أرسلته للعودة بعمه... أي أخي المعاق حيث تركته على مقعد ليستنشق هواء البحر النقي، ويبدو أنه غفا، فقد وصلنا باكراً، لذلك فقد توازنه، مع العلم أنني أجلسته على هذا المقعد بشكل آمن من السقوط.

رد عليه الشاب:

- لا تخف. في اللحظة نفسها التي هوى أخوك عن المقعد وصل ابنك. واستطاع أن يسنده قبل أن يلامس الأرض، ولكن الحمد لله كانت صدفة موفقة، اطمئن ياأخي. فالرجل العجوز لم يصب بأذى، فقد كانا يتحادثان وقد ساعدته بنفسي على الصعود إلى السيارة، وسمعته يتكلم مع ولدك. الحمدلله على سلامته.

سأله يوسف:

هل انتبهت إلى رقم السيارة وشكل الشاب الذي يقودها؟ ربما يكون إنسان آخر وجده على الأرض، قد يكون صعب عليه الأمر ونقله إلى المشفى بعد سقوطه.

كان يريد من السؤال معرفة رقم السيارة، ومن هو السائق، ربما يجد معلومة جديدة تفيده في معرفة حقيقة من الذي نقل الرجل...

رد عليه الشاب:

- لا تخف، أنا متاكد أنه ولدك، لقد كان يعامله برقة ورأفة بالغتين. أليس ولدك الذي يحمل على جبينه شامة كبيرة؟! إذ أنني لم أشك أبداً بالأمر...

شكره السائق، وعاد الى سيارته التي كان قد ركنها في موقف مأجور، بعد أن حصل على معلومة بسيطة عن الشاب والسيارة.

الشاب متوسط في العمر على جبينه شامة، ولا بد أنه يعمل في تلك المنطقة على سيارة أجرة، لكن ليس لديه رقم السيارة ولا اسم السائق... شامة فقط وسيارة أجرة؟! والبلد تعج بهم؟ هذا كل ما لديه من معلومات وهو متأكد بأنها لن تفيده بأي حال للوصول إلى هدفه في البحث عن الأمانة التي أوكلت إليه، الرجل المسكين أبو أحمد حتى أنه لم يجرؤ على سؤال الفتى من يكون هو نفسه وأين يسكن...خوفاً من أن يسأله هو عن نفسه، أو يثير الشك في نفس الشاب.

عاد إلى سيارته، وجلس داخلها وهو يكاد ينفجر من الغيض، يفكر بما حدث، أخذ يصيح كلما أحس بغلطته داخل السيارة المغلقة محاذراً أن يسمعه أحد، ويقول:

- هؤلاء الكلاب الذين لايعرفون الله... هؤلاء الكفرة...

ويعني الأخوين أحمد وحامد:

- أليس هذا الرجل المسكين هو أبوهما؟! أليس هو أهم من عملهما؟! لماذا يرسلانه الى ملجأ؟ أليسا هما أولى برعايته؟ ألا يخافان الله؟! ألم يقل سبحانه وتعالى:

وبالوالدين احساناً.

وأخذ يتلو الآية الكريمة:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيماً)

صدق الله العظيم

يا الله... ما هذه الورطة التي أوقعت نفسي فيها؟! ماذا سأقول لهم؟! سأروي لهم الحقيقة مهما كان الثمن... من المؤكد عندما يعلمون بفقد أبيهم سيصبح بنظرهم أمامي أغلى من حياتهم... قد أتهم بجريمة كبيرة ...أأكذب عليهم

ياربي؟ وماذا أقول ياالله؟ وأنا لم أتعود الكذب طيلة حياتي. لا أعرف النفاق ولا أعرف الحرام. أصوم وأصلي، آمل الآن منك يا ربي أن لا تتخلى عني.

أراد أن يبلغ الشرطة بتفاصيل الحادث، إلا أنه أجّل الأمر للغد، فربما يجده.

قال وهو يغلي من الغضب:

- سأخذ اليوم ركَّابي إلى المركز. وغداً أعود الى هذه المدينة لأبحث من جديد عنه، لعل الله يسعفني بمن يدلني عليه، أو الوصول إليه...

وعندما وصل إلى هذا الحل، ذهب إلى الكراج فحمّل ركابه، ثم انطلق عائداً بهم الى مدينتهم الصغيرة، وما زال في حيرة من أمره كيف سينقل الخبر إلى أولاده. عاد وفكر أن يكذب عليهم بأن يقول لهم إنه وضعه في دار العجزة، وغداً أو بعده سيمر عليه ليعطوه رقم القسم ومكانه حسب حالته الصحية، إلا أن البطاقة الشخصية ما زالت في حوزته، وتقارير الأطباء وصور الأشعة وكل مايتعلق بالرجل المريض من أوراق تخصه، وتخص مرضه.

وصل يوسف إلى بلده أخيراً، وما أن أنزل ركابه حتى اتصل هاتفياً ببيت أبي أحمد ولحسن حظه رد عليه أحمد بنفسه،

وكان يخشى أن يرد عليه حامد أخوه، لأنه معروف بعصبيته ونزقه وسرعة جوابه. دعا أحمد للحضور إلى المكتب، وقد قرر القيام بما نوى من عدم التصريح له بحقيقة ما حصل.

دقائق ووصل أحمد إلى المكتب، وكان كل ما يتوقعه من جاره يوسف أن يقبض منه أجرة نقل والده إلى الملجأ، وربما سيطلب منه زيادة على الأجرة.

سلّم الرجلان، وهنأه أحمد بسلامة الوصول، وبدأ يوسف يسرد له رحلته من بدايتها. قاطعه أحمد قائلاً:

- إن كنت تريد زيادة في الأجرة عما اتفقنا عليه فأنا تحت أمرك. أمهلني إلى الغد وسأعطيك كل ماتطلب.

قال يوسف:

- لا أريد منكم شيئاً...

ثم أخذ يسرد له ما حدث بالتفصيل، لم يستطع الكذب، صعب عليه ذلك، أما أحمد فقد أذهلته المفاجأة وهو يستمع إلى روايته. لم يرد أو أنه لم يستطع ذلك، وبعد صمت طال، وتبادل نظرات حزينة بينهما قال يوسف:

-غداً سأعود إلى المدينة وسأبحث عن والدك. ولن أعود إلا به.

قال أحمد:

- أرجو من الله أن نعثر عليه. سأذهب معك غداً، ثم نوصله الى المكان المناسب، وأنت أعلم الناس بمشكلتنا، هنا لا مكان له، ولا تستطيع زوجتي أو زوجة أخي حامد تقديم أية معونة له باستثناء الطعام. إنه بحاجة دائمة إلى الاستحمام وتبديل ثيابه...الخ وهو ما لا تستطيعان فعله، ولا تجهل السبب. إذ لا يجوز شرعاً ذلك ولا أخلاقياً، ثم لديهما أطفالهما الصغار في السن، وهم في حاجة لرعاية وعناية. ولو كانت مهمتهما غسيل ثيابه فقط لأمكنهما ذلك، ولكن المشكلة في حاجاته الشخصية، أما نحن أنا وأخي حامد فكما ترى، عملنا لا يكاد يسد لقمة عيشنا.

بقي يوسف في مكتبه، وغادر أحمد المكان، على أن يتابع السائق يوسف، ويرافقه أحمد في اليوم التالي، البحث عن أبي أحمد والده.

لنترك السائق يوسف، وقد اتفق مع أحمد على العودة في اليوم التالي إلى العاصمة للبحث عن والده، ونعد الى سائق سيارة الأجرة بعد أن أخذ معه أبا أحمد.

سأله السائق:

_ ما اسمك يا والدي؟.

_ أبو أحمد... وأرجوك أن لا تسألني أكثر... خذني الآن إلى حيث أنت تريد. وأجرك على الله. لكن أود أن أعلم ماذا تريد وإلى أين؟

رد عليه مبتسماً:

- لا تخف يا والدي سآخذك إلى مكان أمين، لكن أين بيتك؟ ألا تريد العودة إليه ياوالدي؟

وكان أبو أحمد قد اطمأن كثيراً إلى الشاب.

رد عليه قائلاً:

_ ليس الآن يا ولدي، ولكن بعد أن تضعني في ملجأ أمين. أرجوك أن تزورني دائماً. ما اسمك يا ولدي؟

_ اسمي محمد.

رد العجوز:

- اسم على مسمى، وصلى الله وبارك على سيدنا محمد. ولكن أرجوك يا ولدي أن تخبرني إلى أين تذهب بي الآن؟! أنت ترى حالي منذ عشاء أمس وحتى الآن لم أذق طعاماً ولا شراباً! أقله أن تسقيني جرعة ماء.

وكان السائق يحتفظ بزجاجة ماء تحت مقعده، توقف على جانب الطريق ثم فتحها وسقاه منها بيده، وتابع سيره وقال:

- لا تقلق يا والدي... طالما أنك لا تريد العودة إلى بيتك لن ألزمك. سأذهب بك إلى الملجأ فيما بعد. أما الآن سآخذك الى حيث تسعد بحياة هانئة، وهادئة، ها نحن قد أوشكنا على الوصول.

بعد قليل دخلت بهم السيارة في حارة شعبية، ثم توقفت أمام بناء قديم مؤلف من عدة طبقات. ترجل محمد، ونادى حارس العمارة الذي جاء مسرعاً ومسلماً، فتعاون الاثنان على وضع أبي أحمد على ظهر محمد، ثم صعد به إلى شقة في الدور الثالث.

ساعده الحارس على فتح الباب وأدخلاه، ثم أجلساه على مرتبة مريحة، أراد محمد أن لا يزرع شكوكاً في ذهن الحارس وأخذ يحدث الحارس، ويقول:

- هذا الرجل هو عمي، وقد أحضرته من الريف لعلاجه في المدينة هنا.!

تلفت أبو أحمد حوله ورأى رجلاً يغط في نوم عميق، لم توقظه تلك الضوضاء

ثم فتش البيت بأنظاره. البيت متواضع الأثاث، الأناقة بادية في كل شئ، رد محمد على نظرات أبي أحمد المتسائلة. قائلاً:

- يا والدي هذا بيتي، وذلك الرجل النائم هو والدي، وكان قد أصيب بقذيفة هاون سقطت على بيته وبترت إحدى يديه، وأُصيب في عدة أماكن من جسده. وعندما يستيقظ بعد قليل ستتعرف عليه. أنا أعيش معه وحيداً، لقد توفيت والدتي منذ
زمن في الحادث نفسه، وليس له أحد سواي يعتني به، وها أنت الآن ستقيم معنا، ريثما نعثر على عائلتك، وبإمكانك أن تعطيني العنوان، وأنا على استعداد للذهاب اليهم وطمأنتهم. طالما أنت تقول إنك تقطن في مدينة أخرى، والرأي يعود لك عندما رأيتك تسقط حَملتُك لآخذك الى المستشفى، وعندما قلت لي بأنك لم تصب بأذى وأنك معاقٌ في إحدى القدمين، جئت بك إلى بيتي ريثما نصل إلى من تريد.
كان يتكلم ويضع بعض الطعام على الطاولة، ثم نادى على الحارس، وساعداه في الدخول إلى الحمام، وذلك بوضعه على كرسي متحرك يخص والده، وفي تلك اللحظة استيقظ والده. عرّفه على الزائر الجديد وتناول الجميع الطعام معاً. خرج محمد ليتابع عمله ويبحث عن رزقه، وتركهما يتعارفان ويتحادثان وهما يتناولان الطعام.

خلال ساعات توثقت العلاقة بين الاثنين، وربما لأن مصيبة ما تجمعهما شعرا وكأنهما صديقان منذ أمد بعيد، وأصبح كل منهما يكمل الآخر، أبو محمد يستطيع السير على قدميه ولديه إعاقة في اليد المتبقية، ولكنها بسيطة، أما الأخرى فقد بترت من الكتف. وأبو أحمد إعاقته في قدميه.

هكذا استطاع الاثنان قضاء حاجاتهما الخاصة كرجل واحد... طابت الإقامة كثيراً لأبي أحمد، ولكن أشد ما كان يقلقه إنه كان يشعر بأنه عالة على رجل يبحث عن رزقه، وعمله بالكاد يغطي حاجاته، وحاجات والده، زد على ذلك أنه غريب عنهم لا تربطه بهم صلة قرابة ما، أما والد محمد فقد تغير حاله حين وجد من يقضي أوقاته معه، ويؤنس وحدته بتناول الأحاديث والتسلية بلعب طاولة الزهر، وقد فرض عليه كونه لا يستطيع القيام بأي عمل، لذلك حكم عليه بتلك الإقامة الدائمة داخل البيت.

ولم يعد محمد إلى البيت في مساء ذلك اليوم إلا ومعه الطبيب الذي يعالج والده، عرض عليه موضوع أبي أحمد، ودار الحوار التالي بين أبي أحمد وأبي محمد عم السائق محمد، فقال أبو محمد:

_ منذ متى أصبت بالإعاقة؟

- منذ أقل من سنة.

- كم عمرك الآن؟

_ تجاوزت الستين سنة.

- هل عرضت نفسك على طبيب؟ وماذا قالوا عن حالتك؟

- قالوا الأمل ضعيف جداً، ونصحوني بمعالجة فيزيائية وبعض الأدوية، لكنها لم تجد نفعاً.

****

عدالة السماء
الفصل الثالث عشر

الأمل المفقود

مرت الأيام وأبو أحمد يعيش في ظل هذا الشاب الكريم، لا ينغص ليله ونهاره سوى ذكرى ولديه وحالته السيئة، وكيف رضيا بأن يرمياه تلك الرمية السيئة مع شخص لا تهمه سوى المادة على رصيف عام، وفي بلد لا يعرف فيها أحداً، ثم يعزي نفسه بأن الله لم ولن يتركه، وقد سخر له الشاب محمد صاحب السيارة التي أحضرته إلى هنا، إلى شقته، وأخذ يدعو له بالتوفيق والصحة والسعادة.

لكن هذا الحمل الذي فرضه على شاب يحمل أساساً فوق طاقته قبل مجيئه جعله يتسائل بينه وبين خالقه:

- ألم يكفِه عبء والده؟! ثم جاء هو أي أبو أحمد ليزيد عليه في الأمر حملاً على حملٍ.

ثم يعود ويسرح بأفكاره فيتذكر أولاده، ويهفو إلى رؤيتهم ورؤية أحفاده ومداعبتهم ويتناسى ما فعلوا به، ويتناسى غضبه منهم، علماً أنه لم يحقدعليهم أصلاً. ثم يعود وينظر إلى سقف الغرفة، ودموعه تسيل على خديه، يناجي

ربه ألّا يقع لأولاده ما يؤذيهم ويدعو لهم بالرزق والعافية، فهو أب والحياة أب وأم.

....

نعود بالقارئ إلى الوراء قليلاً... إلى عائلة أبي أحمد...
صبيحة ذلك اليوم الذي اتفق أحمد فيه مع السائق يوسف على الذهاب معاً للبحث عن أبي أحمد في العاصمة بعد أن اختفى هناك، انطلقا بسيارة يوسف الذي قرر أن يعمل المستحيل حتى يعثر على ضالته، وبالمقابل كان أحمد ظاهرياً يبالغ في التظاهر بالحزن والبكاء على ضياع والده، وفي قلبه بعض الميل لأن ينتهي الأمر بإقامة والده في دار العجزة، ليرتاح هو وأخوه من هذا الحمل الصعب.
ترددا على دور المسنين وعلى كل ماله صلة بالأعمال الخيرية والمشافي، دون جدوى، ثم إلى المخافر دون جدوى أيضاً، وانتهى بحثهما ولم يعثرا على أي دليل يوصلهما إليه.
وبدأت رحلاتهما اليومية، ثم تقلصت إلى أن بقي الأمر محدداً بيوسف صاحب السيارة، فكانت رحلاته يومياً من وإلى العاصمة، ولم يخطر لحامد أن يسأل يوماً عن حال

والده بعدها، وهذا ما كان يزعج أخاه أحمد، فيبتلع لعابه ويسكت أشهراً طالت، والبحث قائم عنه. لكن لا وجود لدليل ينبئ عنه، وفي النهاية لم يبق لديهم سوى خيارهم الوحيد وهو ترك الأمر للقدر.

ووضع أحمد آخر التصورات لما حدث، بما أن أبا أحمد لا يستطيع السير والحركة، ربما ساق الله إليه من نقله من المدينة نهائياً، أما لماذا وإلى أين؟!! فلم يجد لتلك الأسئلة جواباً، وترك الأمر للظروف بعد أن يئس من العثور على والده، وانتهى البحث إلى السكوت عن الأمر.

(هامش ذكريات)

كانت زوجة أحمد تسأله بين الحين والآخر عن وضع أبيه وتطوراته الصحية، وكانت تستغرب بأنه لم يدعها أبداً لزيارة والده، أو الاطمئنان عليه، وبعد مرور أكثر من سنة على إرساله إلى حيث اختفى.

فاجأت زوجها أحمد في أحد الأيام بالسؤال:

- أين والدك يا أحمد؟!!

- إنه يعالج في المدينة.

سألته مرة أخرى:

- أين والدك يا أحمد؟!!

- ما الذي تريدين أن تصلي إليه يا هدى؟
- سنة كاملة ونحن لا نعلم عنه شيئاً!
- وماذا تريدين منه؟
- فقط أريد أن أعرف ما الذي حدث له وكيف لا تدعونا لزيارته لنطمئن عليه؟
- طبعاً علمت بمرضه، ثم علمت بفقده للحركة في بعض أطرافه.
- كل هذا معروف، ولكن أين هو؟
- غريب أنك مهتمة بالأمر كثيراً! أكثر من ابنه أخي حامد.
- مالي ومال أخيك؟! الإنسانية والعاطفة لا تباع ولا تشترى، أريد الصراحة يا أحمد، أين والدك؟
- عجباً والله يا هدى، ما بين فترة وأخرى تفتحين هذا الباب والتحقيق معي لماذا؟
- صارحني وسأقول لك بصراحة...
- نعم سأقول لك كل شيء.
- بعد أن ابتلي والدي بفقد الحركة في بعض أطرافه، وأنت تعلمين أننا تابعناه في البيت أشهراً بالعلاج والرعاية، ولكن أخيراً توقف العمل وتوقف إنتاجنا، ووضعنا

المادي تدهور أكثر مما كان متدهوراً، لم يعد يحتمل مصاريف علاجه، ونحن لا يمكننا البقاء بدون عمل، كما أن الطبيب قرر أن شفاءه هنا مستحيل، ويجب أن يعالج في مشفى خاص، أو أن نضعه في دار للرعاية، وكان أن اقترحنا أن نضعه في إحدى دور الرعاية.

- تخلصتم منه، أليس كذلك!!

- ولكن لماذا أنت مهتمة بالأمر هكذا؟! فضول أم ماذا؟؟

- يا أحمد أنت تعلم أن منطقتنا أصبحت آهلة بالسكان، وأصبح لدينا جيران ونتزاور فيما بيننا، والكثير منهم يسأل عنه، ولا أعرف ماذا أقول لهم، ومنهم من كان يريد عيادته، ثم إن السبب بسيط... إنه والدك وبالوالدين إحساناً... لا أدري والله كيف قبلتم على أنفسكم إخراجه من بيته؟!

- كان القصد التخفيف عنا وعنكم وعنهم، أي بيت أخي.

- عنهم... هم أحرار، ولكن عني لست مشكوراً.

- وهل كنت ستقومين بالعناية به؟

- وما المانع وأنت تعلم أنك جعلتني أترك مدرسة التمريض حين تزوجتك، وكنت ما زلت طالبة فيها، ولدي

خبرة في التعامل مع حالته، كنا تعاونا معاً في القيام بواجبه. وأين هو الآن؟

- لا أعلم.

- أف ما أقسى هذا الجواب! كيف لا تعلم؟!!

- حبيبتي سأروي لك القصة كاملة، وأخذ يحكي لها كل ماعلمناه.

- جهز نفسك إذاً يا أحمد.

- إلى أين؟

- إلى حيث سيرميك أولادك حين تكبر.

وأدارت له ظهرها وتصنعت النوم.

سكت أحمد ولم يحر جواباً، فقد كانت زوجته على حق، وهو لم يستشرها فيما فعلوه، وحتى أنه لم يستشرها في مصير والده.

لكن الأغرب كما قلنا من كل ذلك أن أخاه حامداً لم يسأله يوماً عن والدهما، وهذا مالم يكن يتمناه أحمد شقيقه الأكبر...

((....لنعد الآن إلى حيث كنا...))

نعود إلى محمد الذي نقل أبا أحمد بسيارته وأخذه عن الرصيف... ففي صباح اليوم التالي أيقظ محمد ضيفه أبا أحمد كي يأخذه ويقوم بعمل التحاليل اللازمة له، ولكن أبا أحمد رفض رفضاً قاطعاً الذهاب معه، قائلاً له بصراحة:

- إذا كان ولداي لم يتحملاني عندهم، فكيف سأرضى أن أثقل عليكم وأبقى عبئاً عليك، أرجوك خذني إلى أي مكان... ضعني في ملجأ أو في غيره، وإذا لم يقبلني الملجأ عد بي إلى حيث جلبتني، ضعني هناك على شاطىء البحر مباشرة، ربما ساق إلي ما ينهي حياتي أو ما يريحني، أو ضعني عند انحسار البحر (الجزِر) في الوسط، ولعل ربك يأتي بالمد فيسحبني الموج معه وأرتاح.

- الله الله! ماهذه الأفكار؟! وهل هذا تفكير رجل مؤمن بربه؟! هيا البس ثيابك وتعال معي.

- بالله عليك يا محمد، افعل كما قلت لك. وما الفائدة من حياة رجل لا ينفع نفسه ولا حتى غيره؟!

- ألا ترى والدي وحاله؟! لكنه لا يفكر مثلك.

- يختلف عني.

- كيف؟

- لديه ولد بار مثلك.

- لست ولده، ولكني في مقام ابنه.

- في مقام ابنه وتعامله تلك المعاملة؟!

تأوه وقال:

- أولادي من صلبي رموني وتخلوا عني.

ثم أجهش بالبكاء:

- أولاً لماذا البكاء؟ وهل تعلم ماذا قال الطبيب لي عندما خرج من الشقة بالأمس؟

- ماذا سيقول عني؟ ذاك رجل تالف لا رجاء منه، أليس كذلك؟

- نعم ولكن قال عكس ما قلت... إن إعاقتك من الممكن علاجها ومن الممكن أن تعود إلى المشي بعد علاج طويل.

رد أبو أحمد شاكراً:

- لن أثقل عليك. أرجوك أعدني إلى المكان الذي جلبتني منه، قمت بواجبك كأشراف الناس ولم تقصر، وثوابك عند الله كبير.

- يا عم أبو أحمد، ألا تعلم بأن هذا الطبيب هو من كبار أطباء الأعصاب في العالم؟

وهو قادم من أوروبا، ولمدة محددة لعلاج الحالات المستعصية، وهو من أصل عربي حسب ما سمعت، يعالج ويقوم بعمل الجراحات الدقيقة مجاناً.

بعد محاولات كثيرة من محمد أقنعه برأي الطبيب.!

وبدأ أبو أحمد رحلة علاج طويلة دامت قرابة السنة، ثم تجاوزت السنة الأولى، دون فائدة تذكر، ولكن تشجيع محمد له، والعواطف الكثيرة التي يقدمها أسكتت أبا أحمد.

كم كان يدعو ربه أن يرى نفسه سائراً على قدميه، لارغبة في الحياة، ولا تعلقاً بها، بل كي لا يضيع جهد المحسن الكبير الشاب محمد.

لقد ملّ أبو أحمد طاولة الزهر، فهو يتسلى يومياً مع والد محمد المفترض، لا شغل ولا شاغل ليل نهار.

****

عدالة السماء
الفصل الرابع عشر

غرائب الصدف

في ليلة مقمرة جلس أبو محمد وأبو أحمد على الشرفة، وأمامهما طاولة الزهر، وقبل أن يبدأا اللعب قال أبو أحمد:

- منذ أكثر من سنتين، وحتى الآن لم أعرف شيئاً عن ماضيك، وقد شرحت لك قصة حياتي مع أولادي أكثر من مرة، إن كنت لا تمانع وليس فيها إحراج لك، تفضل.

- ليس فيها ما يحرج لي، فقد مر الزمن على سيئاتها وحسناتها، وكل إنسان خطاء، والكمال لله فقط.

- إذاً أسمعني لعلي أنسى همومي وأجد من يماثلني بالشقاء.

- حقيقة كما ترى، أنا رجل ذهبت الدنيا من بين يدي، وأعد الأيام فقط انتظاراً للنهاية، وأنت أفضل مني بأي حال.

ابتسم ابتسامة ساخرة ثم قال:

- الله الله يا رجل... مخلوق طرد من بيته مرتين، مرة من بيت والده، ومرة من بيته، يُحسد على عيشته!

- لم أفهم... متى كانت المرة الأولى؟

- طردت أنا وزوجتي وأولادي من بيت والدي في القرية، البيت الذي كانت لي اليد الطولى في توسعته وتحسينه والصرف عليه، والأنكى من ذلك كله كان الأمر بمعرفة والدي، وأنا كنت ساعده الأيمن في كل شيء، في الحقل وفي البستان والبيت، وها أنا اليوم كما ترى ليس لي من الحياة سوى الروح والنفس.

- احمد الله على كل حال، أنت عرفت من الدنيا وأخذت الكثير، وماذا أقول أنا الذي كانت جنته ان يملأ بطنه، وسعادته أن ينام ملىء جفونه؟!

- لمَ هذا؟ هل هو الفقر؟

- أحد الأسباب وليس السبب.

- مطارد؟

- نعم تقريباً في البداية أثناء شبابي، غررت بي امرأة بأن جرتني إلى الفاحشة، ولا أعلم تلك الصبية التي كانت تعمل كقوادة لها وتتقاضى أجرة مني ومن غيري.

- ماذا تقول؟

وتبادر إلى ذهنه ما قصه عليه سابقاً صديقه سعيد، ولكنه بقي صامتاً.

- نعم... كانت تقول ابنتي، ولكني أشك بذلك، ربما هي خالتها أي زوجة أبيها.

- شوقتني للنهاية، وماذا بعد؟

- دخل علينا زوجها، وكنت قد بدأت بخلع ثيابي.

هنا اهتم ابو أحمد بالقصة بشكل كبير، لقد بدا التشابه كبيراً بما قص عليه سعيد سابقاً:

- أكمل... ثم ماذا؟!

وهو يتلهف لسماع بقية القصة.

- صمت أبو محمد فترة ليست بالقصيرة، ثم قال وهو يتنهد:

- أقسم بالله إنني لم أجد رجلاً برقي زوج تلك العاهرة... أصفها بالعاهرة لأنها تستحق الأسوأ.

- وماذا بعد؟

- دخل الزوج فجأة، وحمل بندقية صيد معلقة على الجدار، وعلى الفور أطلق النار على زوجته، علمت بأنها زوجته من وصفه لها بالخائنة، وأطلق النار على طفل أو طفلة لم أعلم كانت تحبو، ولكن من خلال المحكمة تبين إنها طفلة نسبت له، ثم وجه البندقية إلي وصاح بي:

- من الذي جاء بك إلى هنا؟

أشرت مرعوباً إلى المرأة التي دلتني، وقبل أن أنطق بحرف كانت المرأة تسبح بدمها.

- يا إلهي! وماذا بعد؟ وأنت؟

- وضع فوهة البندقية على عنقي، ثم دفعني بقوة إلى خارج البيت، لقد كانت سيارة أجرة تنتظره، ويبدو أن أحداً وشى بنا.

- شيء مرعب... ولماذا لم تخبرني من قبل عن هذه القصة؟!

- أصدقك القول، أخجل حتى من التفكير بها، فكيف بروايتها؟!!

قال أبو أحمد ساخراً:

- وهل خرجت عارياً من ثيابك إلى الشارع؟!

- ليس من ثيابي فقط، ولكن خرجت من كرامتي كإنسان.

- ولكن الغريب... هل نفذت ذخيرته؟ لماذا لم يطلق عليك أنت أيضاً؟!

- لم يحن قدري حتى ينتقم الله مني بأكثر مما تراني فيه، ولكن هل يوجد في الدنيا انتقام أكثر من هذا؟

لابد لنا هنا من وقفة بسيطة قبل أن نتابع مع...

(ذكريات 1)

لكل إنسان وقفة يستعيد فيها ذكرياته، ويضع أمام عقله ما يقض مضجعه مما لم يرضه من أفعاله، أو ما لم يقتنع به مع نفسه، ولا بد له أيضاً من محاسبة تلك النفس. الكل يعلم بأن النفس لها هوى ورغبات بعيدة عن المنطق وعن حكم العقل، فإن تركت النفس على سجيتها جرت الويلات على صاحبها، والإنسان بمجمله أحاسيس وعواطف، ودونها يتحول إلى صخرة صماء. والسؤال هل الإنسان مخير أم مسير؟ وهل من يعرف الخير لا يعرف الشر؟؟

وما أجمل الحياة عندما يقوم الشخص بمحاسبة نفسه وقهرها ووضعها في ظل محكمة العقل!

(ورحم الله امرئ عرف حده فوقف عنده)

الناس متخوفة مما تحمله لهم العاصفة القادمة، والكل ملتزم في بيته، ونشرات الأخبار تحذر من عاصفة قطبية ستضرب البلاد خلال أيام، وتطلب من المواطنين الانتباه واتخاذ الاحتياطات اللازمة.

صحيح إن المنطقة ليست من المناطق التي تتعرض بشكل دائم لتلك العواصف، إلا أن الأمر لا يخلو من مرورها في بعض السنوات، خاصة أن المنطقة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ألف وخمسمئة متر، لذلك تتأثر أحياناً بتلك الأجواء الباردة، فيتغير أسلوب حياة السكان في فصل الشتاء تبعاً للفصل الذي نحن نتحدث عنه الآن، وبسبب التناقض الكبير بين الصيف المعتدل، وما تتخلله في بعض الأيام حين ترتفع الحرارة فيه إلى درجات عالية..

يقف تلك اللحظة السيد أحمد بن إبراهيم بطل روايتنا، أحمد الرجل الذي بكر الشيب على رأسه، يقف خلف نافذة غرفته ينظر منها إلى البعيد تجول الدموع في عينيه، ويبدو أن النحيب عزَّ عليه لحظتها كالنساء، بالأحرى خشية أن تسمع صوته زوجته المتدثرة في سريرها تحت غطاء كثيف بعدد من البطانيات، تحتضن طفلها الصغير معها.

يستعيد أحمد من ذكرياته الطريقة التي أرسل فيها والده نحو المجهول، ويشعر كأن قلبه يتفجر من تلك الذكرى المؤلمة بما خلفته له من حزن وقهر وندم..

يتمتم أحياناً بحديث مع نفسه، ويرد في الوقت نفسه على صوت عقله بهذا الحوار في محاولة منه لتبرير فعلته قبل عدة سنوات، ذلك الاتفاق مع أخيه حامد لإرسال أبيه إلى الملجأ للتخلص من همه في عمل يراه شائناً بحق والده، كلما تذكره لا يستطع نسيانه أو طرده من رأسه، ويتصارع مع هذا الحوار فيشغل فكره، إنه الحوار بين المنطق والعقل:

- يا لك من تافه يا أحمد!

- وما ذنبي يا ربي؟! وظروفي كانت قاسية، وما زالت لم تتغير!

- ترسل أباك إلى مصير مجهول؟! فوالله لا يقوم بمثل هذا العمل أي إنسان عاقل يخاف الله.

- أيها المجرم كان المفروض عليك أن تذهب معه وترافقه، هل أصابك الخجل منه؟ أليس كذلك؟؟

- أوتدري ما حاله اليوم؟ أين هو؟ أما زال حياً؟ أم في جنة ربه يدعو علي بالهلاك؟

- ربما تَحَمّل ظلمنا له، والآن يدعو لنا بالصلاح!

- والدي كان رحوماً شفوقاً.

- كلا... كلا، وهل هناك ابن أبيه يفعل ما فعلته أيها الغبي؟!

ثم يعود باللوم على حامد:

- لعنة الله على تفكيرك يا أخي حامد... أنت وراء تلك المأساة... ليتني مت قبل أن أوافق.

- وما ذنبك يا أحمد هل كنت تستطيع تدبر أمرك بوجود والدك هنا؟! لو كان مريضاً فقط لهان الأمر كثيراً، ولكنه كان مقعداً طريح الفراش.

-كلا والله حتى ثمن العلاج كنا نعجز عن تأمينه له.

- نذالة يا أحمد... أين الإيمان؟ وأين موقفك من ربك حين تسجد للصلاة؟! مخاتل أنت...

- ورطة، عسى يغفر الله لي.

- ما فات لن يعود، ها قد مضى حوالي ثلاث سنوات على تلك النقيصة... ولكن أين هو الآن؟ أحي هو أم لاقى وجه ربه؟ آه يا أحمد لو تجد من يريحك بخبر عنه!

- سأذهب للمدينة للبحث والسؤال عنه للمرة المئة.

- غبي أنت يا أحمد. ليتك فكرت قليلاً من قبل، إن ما تدفعه اليوم مصاريف في سبيل البحث عنه، كانت كافية للصرف عليه فيما لو أبقيته بحضنك، ولربما كان ربك

أغناك برضاه، ألا ترى منذ خرج من البيت لم يتغير حالكم أبداً؟

- حامد أخي، أنت بلا قلب، أليس من الظلم طرح تلك الفكرة علي؟! أوليست جريمة موافقتي أيضاً؟

- ماذا فعلت بأخيك يا قابيل؟! وأنت ماذا فعلت بأبيك يا أحمد؟! جريمتي نكراء... على الأقل قابيل ليس أباً لهابيل.

عاد إلى وعيه لحظة وكأنه لم ينتبه إلى ما يتغير أمام ناظريه، أصبح كل شيء لونه أبيض، فالثلج غطى وجه الأرض... حتى الليل ابيَّض مثله.

- مسكين أنت يا أبا أحمد... ذريتك تافهة لا تخاف الله... أنا وحامد... وأضيف زوجتينا معنا، ولكن أنا لم أستشر هدى زوجتي أبدا.

يحدق جيداً في تلك الطبيعة القاسية التي تنعكس الليلة على وجه الأرض.

يا إلهي هناك من يتحرك في البعيد:

- ترى ما هو؟ ماذا أرى؟ ما هذا الذي يلوح كالشبح؟!...

وكأني به رجل يتجه نحونا. حدق جيداً، تأكد له بأن شخصاً ما يقترب، وها هو قد وصل الآن ودخل من بوابة الحديقة الموارية قليلاً. ارتعش بدنه وتساءل:

- ترى من هذا؟ وماذا يريد؟

قرر الخروج فوراً لملاقاته، أراد إيقاظ أخيه حامد، لكنه عدل عن الفكرة لأن مروره إلى بيت أخيه من المكان نفسه، لذلك حمل بيده عصاً ضخمة وخرج لملاقاته:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- ألم تعرفني؟!

- كلا أبداً ...

- لكن أين الوالد يا أحمد؟!

استغرب أحمد مجيء هذا الرجل وبهذه الليلة ليسأل عن والده، كما أنه يعرف اسمه، ولماذا يغامر بالسير تحت الثلج، وماشياً على الثلج؟! سأل أحمد نفسه:

- ترى ما صلة هذا الرجل بوالدي؟! هل هو رسول من عنده؟! لا بد من أن مصيبة ما دفعته لتلك المغامرة!!

قطع الصمت الرجل الغريب:

- سألتك ألم تعرفني؟

- لا والله، تفضل عرفني على نفسك.

- إذاً لا داعي... ولكن سألتك أين الوالد؟

لم يرد أحمد أن يورط نفسه بكذبة لا تصدق، ولا أن يكشف حقيقة تخليهم عن والدهم،

فقال:

- إنه في العاصمة يعالج من علة أفقدته الحركة.

- حتماً والدتك ترافقه.

وبتنهيدة من أعماق صدره أجاب:

- والدتي البقاء لله، يرحمها الله... هي في جنته.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- ولكن لم تخبرني من أنت؟ وما حاجتك؟

- نعم أنا...

وهم بالكلام ثم سكت وابتلع آخر كلمة، واستدار يريد الرحيل دون جواب، لكنه سأل:

- في أي مشفى يعالج والدك؟

لكن أحمد غير الحديث محاولاً التهرب من الجواب:

- تفضل بالدخول. لماذا لا تريد أن تدخل ولا أن تعرفني على نفسك؟! أرى أنك رجل كبير في السن، وتبدو عليك هيئة محترمة، ما وراءك يا أخي تفضل؟؟

- ستعرفني فيما بعد، السلام عليكم.

قالها مودعا: ثم سمع صرير صوت أقدامه وهي تغوص في الثلج الذي زاد تراكمه قليلاً خارج مظلة البوابة، قبل أن ينطلق الرجل المجهول خارجاً، ما جعل أحمد حائراً

يتساءل عما يريد هذا الرجل الذي يبدو بأن معرفته بوالده قديمة:

_ ترى من هو؟

خطا إلى الداخل، وهو يفكر في أمر هذا الرجل زائر الليل الغريب، إضافة لأمر آخر شغله لا يعرفه عما يريد من والده، فجأة تذكر وكأن هاتفا ناداه:

- أليس هذا سعيد صديق والدي القديم؟! كنت أراه معه وأنا ما زلت طفلاً بعد.

- بلى والله، إنه هو!

قفز إلى خارج السور وتتبع عدة خطوات من خطوات سعيد الواضحة على الثلج، ولكن سعيد كان قد ابتعد ولم يعد يلوح له أو يلحظه، فالرياح المحملة بالثلج تمنع الرؤية عبر المسافات البعيدة:

- حسناً فعل برحيله. ماذا أفعل لو عثرت عليه؟! وأين سأستضيفه؟! الغرف الجديدة ما زالت في مرحلة الكساء، ولا يستطيع إنسان النوم فيها، والبرد شديد جداً، ولكن يا ترى من الذي يرسل لنا الأموال الكثيرة بين الحين والآخر؟! حتماً هو سعيد صاحب الأفضال السابقة علينا وعلى والدي..يالهي لماذا لم أتمسك به؟ لماذا تركته يرحل

كان من الممكن أن أستضيفه مع الأولاد لينام معهم في غرفتهم. أين سيذهب هذا المسكين؟

لقد جاء تحت الثلج ورحل فوق الثلج وفي هذا البرد القارس.

في الحقيقة لم يكن أحمد يعلم شيئاً من أمور سعيد الخاصة أومعاناته، لذلك هوّن الأمر على نفسه كثيراً حين أقنع نفسه بحل، وهو أن تكون سيارته في انتظاره.. في مكان قريب.

لكنه استغرب سبب مجيئه في تلك الليلة المثلجة الباردة جداً، فرك أحمد كفيه في محاولة لتدفئتهما ثم أغلق البوابة وعاد إلى غرفته واندس في فراشه، أحست زوجته به حين أيقظتها موجة البرد التي حملها معه إلى الفراش:

- أين كنت؟! وماهذا الصقيع الذي جلبته معك؟

رد ممازحاً:

- كنت عند ضرتك.

- لعنها الله ما أبردها! عد إليها.

- يبدو أن العاصفة بدأت تضرب المنطقة والثلج يتراكم بسرعة.

- نم الآن، وهذه مشيئة الله وحكمته.

- معك حق ياهدى.

ثم تابع في سره:

- أمور غريبة تحدث لم أفهمها... النقود ترسل لنا من مجهول! الوالد مضى على اختفائه مدة ليست بالقصيرة، ولا من دليل يدل على مصيره أهو حي أم ميت؟ ثم سعيد صديق والدي وصاحب أفضاله علينا يظهر فجأة من خلال عاصفة ثلجية، ويرحل قبل قليل دون أن يعلن اسمه، لماذا يا زوجتي الحبيبة؟! ليتني أستطيع حل واحدة من سلسلة تلك المشاكل، فربما جرّت بعضها إلى الحل... جميعها مستعصية... لعل فكري يرتاح قليلاً!

- أين أبي الآن؟ أين كان سعيد؟ وإلى أين رحل؟

تنبه فجأة عندما مرَّ اسم سعيد في ذهنه، فعاد إلى لوم نفسه كيف تركه يرحل في هذا الجو المثلج، ثم يعود إلى التفكير والتساؤل:

- لماذا جاء سعيد؟ وماذا يريد من أبي؟

ويجيب على نفسه:

- لا بد أنه يريد مطالبة الوالد بديون قديمة لا علم لي بها أعلم بأننا سددنا ثمن البيت الذي نسكنه منذ زمن، ثم

لماذا يختفي أكثر من عقدين من الزمن ثم يظهر فجأة في مثل هذا الوقت العاصف؟! أكاد لا أصدق.

يتقلب في فراشه مما يضايق زوجته:

- نم يا أحمد... ستوقظ الطفل.

- إلى أين تسير بنا الدنيا؟! لا أعلم والله.

أحست زوجته بقلقه وكررت القول:

- نم أنت ودعني أنم، وأمامك النهار كله تفكر فيه.

أطبق عينيه، ولكن عقله بقي يعمل عدة ساعات قبل أن يخلد للنوم.

استيقظ الجميع في الصباح، ولكن ليس للذهاب إلى العمل، إنما لإزاحة الثلوح المتراكمة أمام الأبواب، ويبدو إن الثلوج استمرت بالتساقط طيلة الليل، فأغلقت جميع الطرق، وتعطلت جميع الأعمال في ذلك اليوم، ولم يستطع أي شخص الخروج من بيته،

وبينما أحمد وأخوه والأسرتان بالكامل، تتعاونان لإزالة الثلج المتكدس في ممرات المنزل الخارجية والحديقة، وإذا بسعيد يظهر من جديد وبيده حقيبة صغيرة:

- أهلا وسهلاً... أراك ما زلت هنا.

- نعم لقد نمت في سيارتي.

- ولماذا لم تدخل وقد دعوتك؟!

- أنا أعلم بحالكم، وقد تركت التدفئة تعمل في السيارة طيلة الليل، المهم أنا كنت في غربة طويلة دامت حوالي ربع قرن وهذه الحقيبة سأتركها أمانة لديك.

- ماذا تحوي؟!

- ليس فيها ماتخافه.

فتحها وأخرج رزمة من الأوراق تفحصها بسرعة ثم أعادها إلى الحقيبة:

- اسمع يا أحمد... هذه الحقيبة سأتركها أمانة عندك... فيها ما يهمني ويهمكم، فاحتفظ بها وأبعدها عن عبث الأطفال.

ثم استدار قائلاً:

- أنا ذاهب للبحث عن والدكم في العاصمة، لقد قيل لي بأنكم أخذتموه للعلاج في المدينة هناك، وانتقل من مكانه، سأحاول العثور عليه.

- من أخبرك؟

ولكنه كان قد خطا عدة خطوات وابتعد.

(ذكريات 2)

استأنف أبو محمد حديثه:
وقد لاحظ القارئ... بأن هذا الرجل الذي يروي قصته هو نفسه الشاب براء الذي أمسك به سعيدٌ في بيته أثناء ارتكاب جريمته، قبل حوالي ربع قرن!!
_ كأني به تركني حياً لأشهد بما حدث أمام المحكمة، وعندما هممت أن أتناول ما خلعت من ثيابي دفعني بالبندقية، وصرخ بي:
- اتركهم، وسر أمامي، وإلا سأفجر رأسك.
لم أكن بحاجة لأتأكد من جديته في ذلك، فأمامي ثلاث جثث مطروحة ما بين الممر وباب غرفة النوم، منها ما هي ساكنة ومنها التي ما زالت تنتفض، وما بين عينين بقيتا جاحظتين وأخريين تكادان أن تخرجا من محجريهما. لم أستطع أن أرد بأي كلمة لقد أخذ الرعب مني كل حواسي، وأصبحت عبداً مطيعاً لكل ما يطلب. بالطبع كنت في موقف لا أحسد عليه... انهارت أعصابي، وأصابتني رعشة كأنها صعقة كهرباء. للحظات استعدت وعيي، ونفذت طلبه، وسرت أمامه.

عقب أبو أحمد متسائلاً:

- على هذا كان الرجل يبدو في وضع لا يحسد عليه، ومع هذا كان حاضر البديهة! مسكين... ابتلي بما لايستحق.

- كأني بك تأثرت الآن. وهل تعرفه أو سمعت بالقصة؟!

راوغ أبو أحمد في الإجابة لغاية في نفسه:

- إنسان في موقفه يقتل ثلاثة ولم تفرغ بندقيته، ويعفو عمن وجده يخلع ثيابه ليزني بعرضه، ثم يتراجع عن قتله... أليس حاضر البديهة هذا؟ ثم إن القصة قديمة جداً، ولربما كنا جميعاً أنا، وأنت، وهو... متقاربين في العمر.

- اسمع يا أخي... أقسم بالله العظيم يا أبا أحمد إنني لم أقرب المرأة، ولم ألمسها لا من قريب ولا من بعيد من قبل، ولم أبحث يوماً عن مثل هذه المشاكل ابداً.

- لماذا إذاً وافقت على تلك المغامرة؟!

- لا أدري... طيش شباب. وكنت متردداً جداً، وقد نفعني هذا التردد في البعد عن الخطيئة، وعن انتقام صاحب البيت، وخفف عني العقاب في حكم المحكمة.

- يبدو أن المحكمة قد قدرت عدم اقترابك منها فعلاً، ولكن ألم تقابل صاحب البيت بعدها؟!

- لم أعرف عنه بعد ذلك شيئاً، حكم علي وصدر الحكم علي بمدة مخففة.

- وهل قابلته بعد ذلك؟

- أبداً... أنا أصلاً لا أعرفه فكيف سأقابله، لم أره سوى للحظة خاطفة، وفي وضع لا تتمناه لعدوك، ولكن ما أثر بي أكثر أننا أمام جريمة بشعة جداً فما ذنب الطفلة؟! ولماذا قتل حماته؟ ولماذا قتل زوجته؟ كل هذا شاهدته بنفسي، وهذا ما جعلني أفقد النوم وأعيش الكوابيس سنوات طويلة. ربما سُجن مدى الحياة، أو ربما أعدم. ومن المحتمل أن يكون قد هرب خارج البلاد... والله أعلم.

- المهم ما الذي أودى بك إلى هذه الحال؟

- أمر سريع جداً... بعد سنوات من خروجي من السجن، وفي ليلة اشتد القصف فيها نزلت على بيتنا قذيفة، على الأغلب قذيفة هاون، لأنني شاهدت قطعة ملتهبة تدور في باحة المنزل بسرعة هائلة، تضرب الجدار وترتد، وتحصد ما في طريقها...

- لا إله إلا الله...

- حصدت أمي وأبي وأخي وزوجة أخي خلال ثوانٍ، وكما تراني كنت الناجي الوحيد

مع إصابتي التي تعرف, وكان أيضاً الناجي الوحيد هو الرضيع محمد.

- أهو الشاب الذي أحضرني إلى هنا؟

- نعم إنه هو ابن أخي، لا أب ولا أم ولا قريب له سواي، حتى أنا بعد تلك الحادثة لم أتزوج، ومن التي ستقبل بشخص مقطوع اليد مشوه الوجه لايستطيع السير؟!

- مسكين هذا الشاب، إنه يستحق كل خير، فهو كريم بطبعه، عظيم بأخلاقه العالية.

- سبحان الله منذ ذلك الحين وأنت هنا؟؟

- كما تراني، نعم.

تابعا التسلية بطاولة النرد وأفكار أبو أحمد منحصرة بمصير صديقه القديم سعيد.

لندعهما قليلاً يكملان تسليتهما ونعد إلى أحد أبطال روايتنا،وهوسعيد... حيث لابد لنا من العودة إليه لنعرف مصيره، وقد ارتبطت حكايته عفوياً في البداية بصورة غير مباشرة بقصة أبي أحمد (إبراهيم) وأسرته.

كنا قد تركناه في مرحلة ما من الرواية، بعد أن روى الجزء الأهم من أحداث مشكلاته التي دمرت مصيره ومصير أسرته، وارتكب على إثرها جريمة بشعة، ضحاياها ثلاثة أفراد بينهم طفلة رضيعة لا دور لها في القضية، ولا تعلم عن شرعية تكوينها في بطن أمها، كل ما كانت تعرفه أن تضحك لمن يداعبها، وتغفو في حضن من يهدهد لها، أما الفاعل سعيد فقد برر لنفسه قتل الطفلة والجريمة كاملة بأنها كانت دفاعاً عن شرفه وعن كرامته التي دنستها أعمال زوجته وحماته، عندما أكد له براء أن زوجته وحماته تمثلان أبشع الصور بامتهان الدعارة، كما أن اكتشافه لنتيجة التحاليل يثبت بأن إمكانية الإنجاب مفقودة لديه، لوجود نقص طبيعي، وعدم وجود الحيوانات الخاصة بالتلقيح نهائياً. ..

عندما ألقي القبض على الشاب براء، وهذا اسمه (وهي إطلالة على بعض وقائع الحادثة لأنها ليست كلها من نسج الخيال) ألغت المحكمة في آخر جلساتها الوجاهية قرارها السابق بإخلاء سبيل سعيد، وفرضت متابعة محاكمته وهو سجين ومقيد الحرية، لذلك نقلت محاكمته إلى محكمة الجنايات الكبرى في العاصمة، لهذا تركناه بعيداً عن

أحداث الرواية طوال تلك الفترة، لذلك يتوجب علينا الآن معرفة مصيره وتفاصيل مجريات الأحداث التي مر بها.

قام المحامي بإبلاغه قرار المحكمة في آخر لقاء معه(أي سعيد) وجرى هذا الحوار بينه وبين المحامي:

- لقد أمرت المحكمة بإعادتك إلى السجن.

- لماذا يا أستاذ؟ لا تبخل بدفع أي مبلغ كفالة للمحكمة، على أن أبقى خارج السجن.

- حاولت مراراً، ولكن كان طلبي يُرفض في كل مرة.

- أتنصحني بالهروب؟

- هذا الأمر يخصك، ولكنك ستتسبب بالكثير من المشكلات لك مستقبلاً.

- حاول تقديم طلب جديد للمحكمة، ربما تكون ساعة أفضل من ساعة.

- حاولت كثيراً، ولكن مستحيل أن تقبل المحكمة الطلب، ولا تأمل بذلك خيراً.

- وإلامَ في نظرك ستؤول القضية في النهاية؟

- سبحان الله... سؤالك مكرر عشرات المرات، والجواب واحد: إرادة الله وما تراه المحكمة... سأقول صراحة للمرة

المئة ما بين 7 سنوات إذا ثبت عدم التخطيط، إلى الأشغال والإعدام شنقاً.

- إذاً لا توجد براءة؟!

- اللّٰهُمَّ إلا أثبتّ بأنك لست القاتل.

- هههه... الجريمة مرتبطة بي، وتلبسني من أسفل قدمي حتى قمة رأسي.

- حقاً أنت ظالم قتلت زوجتك، ثم حماتك، لماذا؟ ولكن أهم سؤال يتردد في ذهني هو لماذا قتلت الرضيعة؟!

- لا تذكّرني بالله عليك.

- لماذا قتلتها؟! ومن أين جاءتك الشهامة عندما عفوت عن براء الشاب الذي هتك خصوصية بيتك، وأنت تعلم بأن الرضيعة ليست في وارد الخطيئة؟!

- نعم أخطأت... كان هو أول من يجب قتله.

رد المحامي ساخراً:

- اذهب إليه واقتله... هو في السجن الآن.

- البريء الوحيد هي الطفلة، عندما تمر في خاطري أكاد أن أصاب بالجنون! كيف طاوعتني نفسي على قتلها؟! ولكنني أبرر لنفسي ما أتت به نتيجة التحاليل عندما

أثبتت بأنني لا أنجب ذرية. إذاً ابنة من تكون تلك الطفلة؟ هل هي ابنة الشاب الذي سلمته للأمن؟ أم هي خليط من زعران البغاء؟؟

يرد المحامي:

- أيام وتبدأ المحاكمة من جديد، وقد قضيت بيدك على جميع الأدلة التي قد تخفف عنك الحكم، والآن ننتظر ما ستنطق به المحكمة ضدك، وربما لن يكون في صالحك شيء منها.

- ألا نستطيع تدبير شهود يساعدوننا على تخفيف الحكم؟

- القضية لن تفيد فيها أية شهادة من خارج مسرح الجريمة. ليس هناك ما يثبت أي عمل فيه خيانة زوجية أو دعارة.

- والشاب الذي سلمته بيدي للشرطة؟؟!

- أنكر أقواله، وعاد عن إفادته.

- يا إلهي لماذا؟! وما الذي حصل؟!

- محاميه أوجد له مخرجاً، أوله أن اعترافاته كانت تحت تهديد السلاح؟ وثبت ذلك بأن فوهة بندقيتك كانت في عنقه عند نزوله من السيارة أمام المخفر.

- لقد اعترف بلسانه.

- اعتراف تحت تهديد السلاح لا يعتد به، ومن الممكن أن يدعي هو عليك الآن.

- والحل إذاً؟

- جميع الأدلة ضدك. ثم قتلت زوجتك وليس لديك ما يدل على خيانتها، وقتلت حماتك أيضاً ولا يوجد ما يثبت عليها مما اتهمتها به.

- لقد اعترف الشاب براء بذلك.

- ذكرت لك عن دوره، وهو من قلب الموازين بتغيير إفادته.

- ماذا يفعل داخل منزلي إذاً وقد أمسكت به شبه عار وحمل بقية ثيابه إلى المخفر؟!

- بسيطة... سيدعي بأنك وراء خلع ثيابه تحت تهديد السلاح، وربما يدعي غير هذا.

- مثلاً؟!

- أنك كنت تريد اغتصابه.

_تبسم سعيد بسخرية وقال:

- جنون يا سيدي... جنون...

- الواضح لدى المحكمة إنك متلبس بثلاث جرائم قتل، وجريمة رابعة هي التهديد بالقتل، والشيء الوحيد الذي في صالحك هو التقرير الطبي الذي يثبت عقمك، وهو لا يعفيك من العقاب إطلاقاً، وهذا أيضاً بحاجة لوقت طويل حتى يتم إثباته، وقد يخفف عنك الحكم قليلاً،

لقد قابلت محامي الشاب براء فأفاد بأن العقم قد يكون مستجداً لديك بعد ولادة الطفلة، وربما أنت كنت سليماً أثناء زواجك، خاصة وأن سفرك كان بعد حمل زوجتك.

_ وهذا يعني...؟

- أنك مجرم ارتكبت ثلاث جرائم قتل مع سبق الإصرار.

- سبحان الله... أصبحت أنا متهماً بجرائم قتل ليست دفاعاً عن الشرف؟! كيف هذا وقد دُنس عرضي، وانتهكت حرمة بيتي؟!

- حتى سائق التكسي الذي أتى بك إلى البيت، ثم عاد بكما إلى المخفر، قال أثناء التحقيق بأنه لم يكن يبدو عليك الانفعال عندما أوصلك إلى البيت وشك في نواياك... هذا ما أفاد به في التحقيق.

- والحل إذاً؟ أفدني.

- الحل أن تدفع لي بقية أتعابي عن القضية السابقة، قضية نفي البنوة وأن أسحب يدي من هذه القضية.
- يا إلهي ماذا تقول؟ وإلى ماذا تشير؟
_ لا توسع الحوار وفهمك كفاية.
- الأتعاب أمرها سهل جداً، وإذا كنت تستطيع أن تفتح باباً للأمل خذ مني أضعاف أضعاف أتعابك.
- قلت انتهى النقاش، وإلّا سينعكس عليك ما تقوله، المهم أن ترسل لي أتعابي، ولا تأت بنفسك إلى المكتب.
غادر سعيد مكان اللقاء، وأخذ يفكر، ويتساءل:
- ماذا يقصد المحامي بهذا التغيير المفاجئ؟! ولماذا يطلب مني عدم الحضور إلى مكتبه؟!
لكن ما أن استعاد هدوءه حتى فهم بأن المحامي كان يهدد بتسليمه للعدالة، أو الإبلاغ عن مكانه، ومنعه من دخول مكتبه حتى لا يقال بأنه يتستر على مجرم... وفهم ما لم يقله المحامي... كان يرمي إلى أن لا يبقى لحظة بعد اليوم في هذا البلد، وإلا سيكون هو خصمه.
بعد هذا اللقاء اختفى سعيد

****

عدالة السماء
الفصل الخامس عشر

بقية الحكاية

مرت الأيام وأبو أحمد يتعافى ببطء شديد، ولكن الفرق يتضح بين شهر وآخر، إنما ليس بشكل حاسم. وكعادتهما دخل الاثنان على كرسييهما المتحركين، وتمدد أبو أحمد بمساعدة محمد على سريره وهو يدرس فكرة راودته منذ مدة، ولكن حتى اللحظة لم يصرح بها إلى أحد.

في أحد الأيام تأخر محمد عن موعد ذهابه إلى عمله على التكسي بسبب عطل طرأ عليها... جلس أبو أحمد ينتظر الشاب محمد لإصلاحها، ففاتحه أبو أحمد بحديث لم يكن يتوقعه:

- أريد منك خدمة إن استطعت.
- تفضل يا عمي... أنت تأمر ولا تطلب أبداً.
- أريد دعمي بقليل من المال.
- اطلب ما تشاء، ولن أسألك لماذا.
- بل رجوت أن تسألني.
- حسن... ولماذا تريد هذا المال؟ ترسله لأولادك؟
- أرجوك يا بني... أولادي في غنى عني.

- إذاً يا أبا أحمد، ليس مهماً أن أعرف، لكن اطلب ما تشاء.
- أولاً أن تبحث لي عن مكان أقيم كشكاً لبيع الدخان والشاي والقهوة فيه.
- فكرة جيدة... هناك كشك معروض للبيع... رأيت بالأمس يافطة على أحد الأكشاك كتب عليها (للبيع أو التأجير) بل سنشتريه إذا أمكن.
- تابع الأمر يا ولدي، ولنعتبرها شراكة بيننا، رأس المال منك، ومني التعب والجهد.

بذل محمد جهداً كبيراً حتى وصل إلى اتفاق مع صاحب الكشك، والسبب أن صاحبه يريد ثمنه نقداً، وهذا ما لم يكن يملكه، وفي النهاية اتفقا على استئجاره مدة شريطة أن لا يبيعه صاحبه قبل إعلامهم، ولهم الأفضلية بالشراء بالسعر المتفق عليه مع الشاري الآخر.

بدأ محمد بتجهيز الكشك وترتيبه من جميع النواحي، ووضع ما يلزم من البضائع... أيام ويفتتح أبو أحمد الكشك حيث كان العمل جدياً والحركة دؤوبة والخير كثيراً والموقع ممتازاً وقريباً من المدارس والدوائر الحكومية.

حالفهم الحظ وانتقلوا من الطابق الثالث إلى الدور الأرضي، بعد أن ترك الساكن السابق المكان وأصبح الآن سكنهم في الدور الأرضي، ما سهل التنقل على أبي أحمد كثيراً، فعشق عمله وأحبه، يعمل في الكشك من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل، وعندها وجد الراحة النفسية خاصة داخل الكشك، حيث كانت نوافذ البيع موزعة على جميع الاتجاهات تقريباء ما جعله يضع في داخله كرسيا دواراً.

وكأن الحظ بدأ يعود ويتحالف مع أبي أحمد، فقد كان البيع أكثر من جيد، وكانت الأرباح رائعة، وأبو أحمد يقتسم الأرباح بشكل دوري كل مدة مع محمد حتى لا تتراكم ويصبح من الصعب حسابها. وكان يحسم ثمن الأدوية وأجرة الطبابة من حصته، ومع هذا كانت حصيلة أرباح البيع كبيرة والفائض جيداً.

استيقظ أبو احمد صباح أحد الأيام وهو يصيح من الألم، ليتفاجأ بأنه صادر عن مفاصل رجله المعطلة، وأنه بدأ يحس بتقلصات مؤلمة في ساقيه! لم يعهد تلك الآلام أبداً منذ إصابته بتلك الإعاقة، ولم يعد اللحظة يشعر بالثقل الذي كان يحس به من قبل... حرك قدميه، ياللهول كاد أن

يغمى عليه! أصيب بالدهشة لقد تحركتا! حاول الوقوف عليهما... وقف!

صاح من شدة الفرحة... استيقظ على صوته محمد وأبوه فزعين.

هرع محمد إليه وهو يفرك عينيه يسأله عما حلَّ به، يروح ويغدو بسرعة دون وعي يبحث عن مفاتيح سيارته كي ينقله إلى المستشفى.

وكانت المفاجأة اللطيفة حين نظر خلفه وإذ بأبي أحمد يفتح يديه ويحتضنه... وقف مدهوشاً لايصدق ما يرى... لا تسل عن فرحتهما بنجاح علاجه! الذي كان فيه الفضل الأكبر إلى محمد الذي لم يبخل بأي مساعدة...

ركب الهمُّ أبا أحمد من جديد عندما ذهب ليفتح الكشك كي يتابع عمله هذا اليوم، وقال لنفسه:

- ما الفائدة؟ وأين أذهب الآن؟! لم يعد لي حجة بالبقاء هنا، وليس بإمكاني الذهاب إلى أولادي الذين تنصلوا مني، كيف سأذهب إليهم وليس لي مكان عندهم؟ وحتى لو عدت إليهم، سيكون الأمر محرجاً لي ولهم.

وصل الى دكانه الصغير، وتفكيره غير قادر على حسم هذا الأمر، لم تعد له حجة بالبقاء هنا، وهذا الدكان الصغير

ثروة بحد ذاته، ماذا سيفعل به؟ هل يتنازل عن حصته إلى شريكه وهو لم يدفع قرشاً واحداً؟! رأس المال قدمه محمد، ومهمته كانت العمل كشريك دون رأس مال.
أخيراً استقر على ترك الأمر حتى يمر عليه شريكه اليوم، حينذاك يبحث الأمر معه ويقرران ما عليهما فعله. ثم نظر إلى السماء وقال:
- يارب سلمت أمري إليك وإلى عدلك! اهدني... وساعدني يارب... قبل أيام كنت أصل الى عملي على كرسي متحرك، واليوم أصل إليه على قدميّ. شكراً لعدالتك... شكراً لعدالة السماء التي لم تنسني.
وبعد تفكير شديدٍ، وحلّ وربط قرر البقاء في هذا المكان، ومتابعة مساعدة أولاده دون أن يعلموا من أين تأتيهم تلك المساعدة كالعادة! وما أن وصل محمد شريكه إلى الكشك حتى قال أبو أحمد له:
- الآن أصبحت أنا في حالة جيدة، وهذا الكشك لك، وأنا شريك فيه دون أن أدفع شيئاً.
أنت من تحملت كافة تكاليفه وأسسته، واليوم سأتركه لك تتصرف به كما تشاء.
أجابه محمد:

- لن يتغير شيء... أنت شريك كما كنا.

_ ولكن أنت لم تقصر معي ومن واجبي فوق شكرك أن نعيد اتفاقنا إلى حكم المنطق

_ لم أفهم... ماذاتقصد؟

_ أن نعيد اتفاقنا حسب المستجدات، أنا اليوم بخير ولاتجوز علي الحسنة، لذلك إما أن أعمل عندك براتب شهري، وإما أن تعطيني ربع الإنتاج فقط وليس النصف كما كنا.

_ لاهذا ولا ذاك اتفاقنا ساري المفعول أنت صاحب الفكرة وأنا مدين لك بها.

أصبح أبو أحمد يرسل لأولاده مبالغاً كثيرة من حصته كلما استطاع ذلك، دون أن يعلم أحد منهم كيف ومن أين تأتيهم تلك الأموال، تغير حالهم وتحسن وضعهم. وتوسعوا في البناء، وركبهم الندم فوق ندمهم السابق على تصرفهم المخزي مع أبيهم، قال أحمد لأخيه ذات يوم:

- لم نكن جادين من قبل في البحث عن والدنا. لكن يجب أن نعرف مصيره على الأقل.

وكان محمد قد علم بقصة أبي أحمد كاملة، وهو من بين الذين أوصلوا أموالاً لهم، ولم يكن يصرح لهم بشئ حتى

أنه كان يتجنب مقابلتهم كي لاتظهر معرفته به... كل ما في الأمر كان هو أن يسلم النقود الى مكتب السيارات ضمن رسالة مغلقة ومعنونة باسم أحدهم، وهم يرسلون في طلبهم وتسليمهم المبالغ المرسلة لهم دون معرفة المصدر... كان أبو احمد يتحسر كثيراً لفراق أولاده وبشوق دائم لرؤيتهم، ورؤية أحفاده، ولكن كان يشعر بأنه طرد طرداً من بيته لذلك لم يحاول الإتصال بهم.

.....

بقية الحكاية....

وجاءت النهاية.....

بكّر أبو أحمد هذا الصباح بالذهاب إلى عمله على غير عادته، إذ لم ينم الليلة الماضية

لأسباب لا يجهلها، إلا وهي تراكمات الهموم التي التصقت به ولم تهجره يوماً، وحين وصل إلى طرف الساحة العامة التي تقابل كشكه تفاجأ بازدحامٍ للناس يقطع الطريق ويمنعه من الوصول إلى دكانه، فوقف قرب مجموعة من الشباب، وسأل أحدهما:

- ما الذي يحدث هنا يا بني؟!
لفت نظره بعض الأشخاص يثبتون في الساحة شيئاً ما.
نظر إليه الشاب ساخراً وقال مشيراً بيده:
- ألا ترى تلك المشنقة التي تقام هناك؟
- ياإلهي... لمن؟!
- لا أدري والله، سنعرف بعد قليل، انظر... ها هي السيارة وصلت وهاهم ينزلون المحكوم عليه، ياله من جبار! إنه ينزل بهدوء شديد من عربة السجن!
- مسكين على هذا المصير! هل كان يدري بأن مافعله سيؤدي به إلى حبل المشنقة؟
- انظر... أرى الشرطي يحمل ورقة بيده. اسمع بدأ يتلو عليه الحكم، ويقف الآن بمواجهته... لم أعد أراه...
وما أن انتهي من تلاوة الحكم وأسبابه والقوانين النافذة التي أدت إليه، وألصق الورقة
على صدر المحكوم، حتى غير الشرطي مكانه ثم تنحى جانباً، عاد أبو أحمد وسأل الشاب إن كان قد سمع إسم المحكوم حين قرأ الشرطي الحكم، وقبل أن ينتظر الجواب
حتى صرخ بأعلى صوته:

- يا إلهي... من سعيد؟!

لم ينبس المحكوم بحرف، ولكن يبدو منه أنه أيضاً عرف صديقه القديم، لم يستطع أن يشير إليه أو يرد، فيداه مقيدتان إلى الخلف، ولسانه ملتصق بسقف حلقه يعاني سكرات موت في عقله قبل جسده، ولكن شبح ابتسامة دلت على أنه عرفه.

أما أبو أحمد فقد سقط على الأرض من هول الصدمة، وعندما فتح عينيه لحظة على صوت عالٍ يصيح فوق رأسه يصيح:

- أبي... أبي...

تلك الصيحة التي صدرت عن ولديه معاً اللذين تصادف وجودهما في تلك اللحظة هنا قربه يشاهدون تنفيذ الحكم بعد أن قرر محمد أن يدعوهم ألى هنا ليصلح الأمور بين الأب وولديه.

وفي تلك اللحظة أطبق عينيه على تاريخ أسرة فككها الفقر، وفرقتها الغايات الشخصية.

توفي أبو أحمد، وعندما فتحت وصيته، كان قد أوصى بأنه قد تنازل عن حصته إلى شريكه محمد الذي وقف معه حتى النهاية. رفض محمد تلك الهبة وطلب من أولاده

التصرف بحصة والدهم بيعاً أو شراء حصته هو، وكانت عدالة السماء في تلك الحسرة التي رافقتهم طيلة حياتهم بتقصيرهم مع والدهم، يرددونها كلما مر بخاطرهم:

- قصّرنا مع والدنا...

ثم يقولون:

- عسى أن يكون أولادنا أحسن منا، ولا يعاملونا بما عاملنا والدنا، حين قصرنا بتعاليم الله سبحانه (وبالوالدين احساناً... صدق الله العظيم).

****

تمت بحمد الله

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر